

# سُورَةُ التَّكْوِيْنِ

o b e i t a n d i . c o m

obeikandi.com

## عرض ودراسة

ترسم سورة التكوير يوم القيامة وما يحدث ، إيداناً به ، من ستة أحداث خطيرة ، هي تكوير الشمس ، وانكدار النجوم ، وتمسير الجبال ، وتعطل النوق الحوامل أو تعطل السحب ، وحشر الوحوش ، وفيضان البحار واتصال مياهها أو إضرارها بالنار . ثم ما يحدث في هذا اليوم من ستة أحداث أخرى لا تقل عن سابقتها خطورة ، هي تزويج النفوس بأبدانها أو بأقرانها ، وعرض الموءودة وقضيتها بين يدي الرحمن ، ونشر صحف الأعمال أمام العباد ، وانكشاف غطاء السماء وحجابها ، واضطراب الجحيم واشتعالها ، واقتراب الجنة ودنوها . ويقسم الله ، جل شأنه ، قسماً عظيماً بالكواكب والنجوم في اختفائها وظهورها ، وبالليل حين تأخذ دياجيه تنحمر ، وبالصبح حين تأخذ أضواؤه تنبثق ، بأن الذكر الحكيم إنما هو وحى جبريل الرسول الإلهي الكريم القوي عند ربه المطاع في السموات الأمين . وتقول السورة ما حديث رسولكم محمد عنه حديث مجنون ، فقد رآه بالأفق الأعلى المبين رؤية اليقين ، وإنه للصادق الصدوق الذي يرقى في كل ما يحدث به عن أى شك أو ريبة أو اتهام ، وليس لكم مفر من كل ما أنذرکم به من بعث وجزاء . وإنها لشریعة يحملها إلى العالم جميعه تهدي إلى الحق المبين من أراد أن يسلك الطريق النيرة إلى الهدى والرشاد إرادة تستند إلى إرادة رب العالمين .

(إِذَا الشَّمْسُ كُوِّرَتْ) :

(كُوِّرَتْ) من التَّكْوِيرِ، وللکلمة اشتقاقاتها معان متقابلة ، فهي تأتي

بمعنى ضم الشيء بفضه إلى بعض ، ومنه كَارَ العمامة وِكْوَرها بمعنى عَصَبها  
وشدَّ أجزاءها . وتَأْتى بمعنى سقط . ومنه تَكْوَرُ الحِمْلُ إذا سقط . وتَأْتى بمعنى  
التغشية والسُّتْر . وتَأْتى بمعنى الإلقاء والإزالة ، يقال طعنه فِكْوَره إذا ألقاه  
وصرعه . وإذا جعلنا الكلمة فى الآية بمعنى الإلقاء والإزالة التقت فى معناها  
بقوله تعالى فى سورة الأنبياء : ( يَوْمَ نَطْوِي السَّمَاءَ كَطَيِّ السَّجِلِّ لِلْكِتَابِ )  
والآية لانتريد الطي بآلة أو علاج ، وإنما تريد الدلالة على الذهاب والفناء ،  
ومثلها التكوير هنا بمعنى الإزالة والسقوط وضم الشيء بفضه إلى بعض . فهذه  
المعاني الثلاثة متقاربة ، وتنتهى إلى إفناء الشمس والذهاب بها . ويمكن أن  
يكون معنى (كُورَتْ) غُشِيَتْ ، وهى بهذا المعنى تلتقى بقوله جلَّ شأنه فى  
سورة الزمر : ( يُكْوَرُ اللَّيْلَ عَلَى النَّهَارِ وَيُكْوَرُ النَّهَارَ عَلَى اللَّيْلِ ) أى يغشى  
الليل النهار فيذهب بضوئه ويغشى النهار الليل فيذهب بظلمته وهو معنى  
آية سورة الأعراف : ( يَغْشَى اللَّيْلَ النَّهَارَ يَطْلُبُهُ حَثِيثًا ) . وتغشيتها أو  
ستر ضوئها ينتهى إلى إفنائها أى إفناء نورها وطمسه . وقيل معنى (كُورَتْ)  
ألقىت من فلكها على الأرض كأنها تُطْعَنُ ثم يُلْقَى بها ، وقيل بل يلقى بها  
فى النار زيادة فى عذاب الكفار ، واعتُرض على هذا القول بأن النور لا يلحق  
بالنار وإنما الحرى أن يلحق بالجنة وأهلها . وحاول بعض المفسرين أن يوفق  
بين الرأيين ، فقال إن الشمس تحمل النور والنار أو النورية والنارية ، فما  
كان فيها من النورية يلحق بنور العرش وما كان فيها من النارية يلحق  
بالنار . والعودة بنور الشمس إلى العرش إنما هو امتداد لما قيل من أن الله  
خلق الشمس والقمر من نور العرش ، وأنه طَمَسَ الضوء من القمر وبقى فيه  
النور ، حتى يوجد التمييز فى وضوح بين الليل وقمره والنهار وشمسه . وهذه  
الأقوال وما يماثلها إنما هى تأويلات لمثل قوله تعالى فى سورة الإسراء :

( وَجَعَلْنَا اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ آيَاتَيْنِ فَمَحَوْنَا آيَةَ اللَّيْلِ وَجَعَلْنَا آيَةَ النَّهَارِ مُبْصِرَةً لِّتَبْتَغُوا فَضلاً مِّن رَّبِّكُمْ وَلِتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسَابَ ) والله جَلَّ شأنه ، في هذه الآية وما يشبهها إنما يتحدث عن آياته الكونية وأنه ، كما يقول في هذه الآية ، خلق الليل والنهار بتعاقبهما واختلافهما ، ليكون النهار معاشاً في ضوءه المبصر ، ويكون الليل سكناً وراحة ومناماً في دجاء المظلم ، ولتتم نظام الحياة الإنسانية وتم دوراتها التاريخية . ومن الزيادات ، وقد يكون مما دخل على التفسير من الإسرائيليات ، أن يُقال : « إذا قامت القيامة وقضى الله بين الناس وميَّز بين أهل الجنة والنار ولم يدخلوهما بعدُ يدعو الربُّ تعالى بالشمس والقمر ، ويُجاء بهما أسودين مكورين (مطويين ملفوفين) قد وقفا في زلازل وبلابل تُرْعَدُ فرائصهما من هول ذلك اليوم ومخافة الرحمن ، فإذا كانا حيال العرش خراً لله ساجدين ، فيقولان : إلهنا قد علمت طاعتنا لك ، وأدبنا في عبادتك وسرعتنا للمضى في أمرك أيام الدنيا فلا تُعذبنا بعبادة المشركين إيانا ، فقد علمت أنا لم ندعهم إلى عبادتنا ، ولم نذهل عن عبادتك . فيقول الربُّ : صدقتا إني قد قضيتُ على نفسي أن أبدأي وأعيد « إشارة إلى قوله تعالى في سورة الأنبياء : ( كَمَا بَدَأْنَا أَوَّلَ خَلْقٍ نُعِيدُهُ وَعَدًّا عَلَيْنَا ) » وإني مُعيدكما إلى ما بدأتهما منه ، فأرجعا إلى ما خلقتكما منه ، فيقولان : ربنا ممَّ خلقتنا ؟ فيقول : خلقتكما من نور عرشي ، فأرجعا إليه ، فتلمع من كلِّ منهما بَرَقَةٌ تكاد تخطف الأبصار نوراً ، فيخلطان بنور العرش » . وواضح أن كل هذا تزيد ، ومن شأنه أن يحجب الفهم الدقيق للآيات القرآنية . والآية في السورة إنما تشير إلى علامة من علامات الساعة ، وهي أن الشمس تكوِّر ، أو بعبارة أخرى ، يُمَحَى ضَوْؤُهَا ، ويشهد لذلك قوله ، جَلَّ وعزُّ ، في سورة القيامة : ( فإِذَا

بَرِقَ الْبَصْرُ وَخَسَفَ الْقَمَرُ وَجُمِعَ الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ يَقُولُ الْإِنْسَانُ يَوْمَئِذٍ أَيْنَ الْمَقَرُّ) فالبصر يتحير ويُبْهَتُ ، والقمر يُخَسَفُ ويذهب ضوؤه جميعه ، ويُقَرَّنُ بينه وبين الشمس في ذهاب الضوء كما رُوِيَ عن الرسول عليه السلام . وهذا هو المراد بالتكوير في الآية ، ومعروف أنها كرة هائلة من غازات متجمعة مرتفعة الحرارة ، مما يجعلها جسماً غير متماسك لا يزال يرسل بألسنة اللهب والضوء ، وكأنما ستحدث فيها قبيل القيامة انفجارات تذهب بضوئها ، وحينئذ تفتى الأرض وَمَنْ عَلَيْهَا وتصبح ظلاماً في ظلام ، إذ كل وجودها وظاهراتها الطبيعية إنما يرجع إلى أضواء الشمس ، يرجع إليها نور القمر الناشئ عن انعكاس أشعتها عليه كما ترجع الرياح الناشئة عن حرارة سطح الأرض بدرجات متفاوتة ، وكذلك السحب والأنهار التي تنشأ من تسلط أشعة الشمس على مياه البحار والمحيطات . ولا نغلو إذا قلنا إن كل ظاهرة طبيعية على وجه الأرض ترجع إلى الطاقة المنبعثة من الشمس ، فحين تُمَحَى هذه الطاقة وَيُمَحَى معها الضوء والنور يكون ذلك إيذاناً بموت كل ما على الأرض وفنائه .

(وَإِذَا النُّجُومُ انْكَدَرَتْ ) :

معنى (انكدرت) في رأى جمهور المفسرين انتشرت لقوله تعالى في سورة الانفطار : (إِذَا السَّمَاءُ انْفَطَرَتْ وَإِذَا الْكَوَاكِبُ انْتَشَرَتْ) . وعن ابن عباس : (انْكَدَرَتْ) وقعت على وجه الأرض ، وذلك أنها - كما رُوِيَ عنه - قناديل معلقة بين السماء والأرض بسلاسل من نور ، وتلك السلاسل بأيدي ملائكة من نور ، فإذا مات في النفخة الأولى مَنْ في السموات وَمَنْ في الأرض

تنتثر تلك الكواكب وتساقتت سلسلها لأنه مات من كان يسكها من الملائكة . وعن ابن عباس أيضاً : ( انكدرت ) تغيرت فلم يبق لها ضوء ، وكان انكدارها طمس أضوائها ، ولعل هذا نفسه هو معنى آية الانفطار : ( وَإِذَا الْكُوكَبُ انْتَثَرَتْ ) فهو انتشار مجازى يراد به ذهاب أضوائها وانحائها كما جاء فى آية سورة المرسلات : ( فَإِذَا النُّجُومُ طُمِسَتْ ) وبذلك تكون ( انكدرت ) مشتقة من الكُدرة فى اللون أى عدم صفائه ، والمراد انطماس أضوائها تماماً كما انطمست أضواء الشمس وانمحت فى الآيه السابقة ، فلا يكون هناك أى ضوء يُرى ، فقد فنيت أضواء الشمس وماتت ولم يعد هذا السراج الوهاج يرسل إلى الأرض طاقته وأشعته وأنواره ، وتبعته مصابيح النجوم بما يحدث فيها هى الأخرى من انفجارات فى كُتلها الغازية الضخمة أو بنفاد ما تحتاج إليه من وقود الإيدروجين ، فإذا هى تفقد توقدها ولعانها الذى نراه فى الليل ، وتصبح مثل الشمس حينئذ كتلاً مادية لا حرارة فيها ولا ضوء ولا إشعاع . على الأقل يحدث ذلك فى المجموعة الشمسية ، إذ تصبح الشمس كتلة سوداء مظلمة يكسوها ظلام أبدي ، يغمرها ويغمر كواكب مجموعتها ونجومها بحيث تظل على ولائها لأمها الشمس ، وتموت معها نفس الموتة إذ تلفظ روحها ، وبعبارة أدق حرارتها ، وتصبح كتلا سوداء ضخمة . وبالمثل تلقى الأرض حتفها وتموت كل حياة فيها . بل لعل ما يحدث حينئذ أبعد من ذلك ، فلن يحدث ما صورناه للشمس ومجموعتها فقط . بل يحدث أيضاً لمجاميع نجمية أخرى ، وكان انهياراً كونياً لا حدود له ولا أبعاد سيحدث ، أو قل كأن انهياراً كاملاً سيحيق بالعالم على نحو ما يقع انهيار فى بناء متعدد الطبقات تعدداً ضخماً ، فإذا

جميعه يصبح أنقاضاً . ولا ريب في أن ذلك سيحدث بسرعة خاطفة لا تكاد تُعْطَى فيه فرصة لأحد ممن سيحضرونه كي يتبينه في وضوح ، وسيعقب ذلك فناؤه وفناء كل من على الأرض معه . وهي حيرة بالغة تأخذ بتلابيب الأحياء وسرعان ما يرون الموت ماثلاً نصب أعينهم ، فقد حَقَّت ساعة الفناء ، ساعة تتكاثر أهوالها في السموات وفي الأرض ، أما السموات فتنتطئ شمسها ونجومها ، وأما الأرض فعلينا أن نتابع ما يحدث لجبالها ، وأناسيها ووحوشها وبحارها ، مما سيرى فيه الإنسان صوراً من الرعب لا يحيط بها وهم ولا خيال .

### (وَإِذَا الْجِبَالُ سُيِّرَتْ) :

تسير الجبال نزعها من أماكنها وتسييرها منفصلة عن وجه الأرض أو مع ما حولها كما جاء في سورة النمل : (وَتَرَى الْجِبَالَ تَحْسَبُهَا جَامِدَةً وَهِيَ تَمُرُّ مَرَّ السَّحَابِ) فهي في مرأى العين كالقائمة في حين أنها تسير سيراً حثيثاً ، أو لعلها تسير بمن حولها أو بمن عليها فلا يحسون أنها متحركة أو سائرة . وقد تردّد وصف هذا الحادث في القرآن على وجوه متعددة ، إذ ذكر أن الجبال تنزل مع الأرض وتُحْمَلُ من أماكنها وترفع وتُدَقُّ دقة واحدة كما جاء في آية سورة الحاقة : (وَحُمِلَتِ الْأَرْضُ وَالْجِبَالُ فَدُكَّتَا دَكَّةً وَاحِدَةً) والدك الحطّم . وذكر القرآن في سورة القارة أنها تصير. (كَالْعِهْنِ الْمَنْفُوشِ) والعهن الصوف والمنفوش المندوف المتفرق الأجزاء المتطاير في الجو ، وذلك حين تُصبح السماء كالمُهَلِ وهو المعادن المنصهرة كما قال ، جَلَّ شَأْنُهُ ، في سورة المعارج : (يَوْمَ تَكُونُ السَّمَاءُ كَالْمُهَلِ وَتَكُونُ الْجِبَالُ كَالْعِهْنِ) . وجاء

في القرآن أيضاً أنها تصير بعد تَزَلُّزِ الأرض وما يصيبها من البَسِّ أى التفتت والدكِّ والدقِّ الشديد غباراً متطائراً في الهواء متفرقاً على نحو ما صوّرت ذلك آياتُ سورة الواقعة : ( إِذَا رُجَّتِ الْأَرْضُ رَجًا وَيُسَّتِ الْجِبَالُ بَسًا فَكَانَتْ هَبَاءً مُنْبَثًا ) ، والهباء المنبث ما تثيره الخيل بسنابكها من الغبار، وهو أيضاً التراب الدقيق الذى يخرج من الكُوَّة في ضوء الشمس ، وقيل هو ما تذرره الرياح من يابس أوراق الشجر ومن الغبار . والمنبث المتفرق والمنتشر . وقيل البَسُّ السُّوقُ أى سِيقَتِ الجبال وسُيرت . وذكر في القرآن أيضاً أن الجبال تُنَسَفُ عن الأرض نَسْفًا على نحو ما تصوّر ذلك آية سورة طه : ( وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْجِبَالِ فَقُلْ يَنْسِفُهَا رَبِّي نَسْفًا ) ، وكان الله يزيلها عن الأرض حتى تبرز ، وحتى تصبح مستوية استواءً واحدًا كما قال في في سورة الكهف : ( وَيَوْمَ نُسِيرُ الْجِبَالِ وَتَرَى الْأَرْضَ بَارِزَةً وَحَشَرْنَاهُمْ فَلَمْ نُغَادِرْ مِنْهُمْ أَحَدًا ) . وجاء في القرآن أيضاً أن الجبال تصبح سراباً إذ تتطاير أجزاؤها وذراتها كأنها سرابٌ إذا جاءه الناظر لم يجد شيئاً لانتشار موادها وعناصرها . وكل ذلك تصوير لما سيحدث على الأرض في نهاية العالم من تغيير في صورتها ، إذ تُرْفَعُ منها الجبال وتصبح كما جاء في سورة طه : ( قَاعًا صَفْصَفًا لَا تَرَى فِيهَا عِوَجًا وَلَا أَمْتًا ) . فهي قاع مستو أملس لا نبات فيها ، إذ لم تعد تُرْسَلُ إليها أسباب الحياة من الشمس وطاقتها الحرارية وغير الشمس ، لقد أصبحت فضاء خالياً من كل حياة وليس فيه عِوَجٌ أو مكان منخفض ولا أمتٌ أو مكان مرتفع ، أو بعبارة أخرى لم يَعُدْ بها أودية ولا روابٍ ولا أى انخفاض أو ارتفاع يَدِقُّ عن البصر والإدراك . لقد أخذت تستحيل عن طبيعتها مع ما حدث من استحالة في السماء والشمس والنجوم

استعداداً للنشأة الثانية وما سيحدث للعالم من خلق جديد لا يعلم حقيقته  
وكنهه إلا الله .

### ( وَإِذَا الْعِشَارُ عُطِّلَتْ ) :

ذهب جمهور المفسرين إلى أن العِشَار هنا على حقيقتها جمعاً لِعُشْرَاء ،  
وهي الناقة التي أتى عليها في الحمل عشرة أشهر ، ويظل ذلك اسمها حتى  
تضع حين يستدير العام ، وبعد أن تضع . وإنما خَصَّت الآية العِشَار  
بالذكر لأنها عزيزة عند العرب . و (عُطِّلَتْ) أَهْمِلَتْ ولم يُعْنَ بها أصحابها  
مع كونها مرغوبة بل محبوبة عندهم . وهو مَثَلٌ أُريد به تصوير هول يوم  
القيامة ، بحيث لو كان للشخص ناقة عُشْرَاء عزيزة على نفسه لعطلها  
وأهملها واشتغل بنفسه ، فكل شخص حين تدق علامات الساعة يشغلُّ  
عن جميع أمواله وأعماله في دنياه . وقيل ، وهو قول ضعيف : إنهم إذا قاموا  
من قبورهم وشاهد بعضهم بعضاً ورأوا الوحوش والدوابَّ محشورةً وفيها عِشَارهم  
التي كانت أَنفَسَ أموالهم إليهم لم يَعْبَثُوا بها ولم يهتم أمرها . والآية في  
مقدمات قيام الساعة وأماراتها لا بعد قيامها . وقيل العِشَار في الآية الديارُ  
تُعَطَّلُ فلا تُسْكَنُ . وهي استعارة بعيدة ، ومثلها قَوْلُ مَنْ قال : العِشَار  
الأرض التي يُعَشِّرُ زرعها تعطلُّ فلا تُزْرَعُ . وقيل ، ولعله أقرب الأقوال إلى  
الصحة لالتشابه مع سياق الآيات ، إن العِشَار هي السحاب يعطلُّ مما يكون  
فيه وهو الماء فلا يمطر ، والعرب تشبَّه السحاب بالحوامل . وقد جاء ذلك  
في قَسَمِ الله بسورة الذاريات ، إذ قال : (والذَّارِيَاتِ ذُرُوءًا . فَالْحَامِلَاتِ  
وِقْرًا) ، والذاريات : الرياح و (الْحَامِلَاتِ وِقْرًا) : السحاب تحمل الوقر

أو المطر ، وهو حياة الأرض . وكان الآية تكميل لما قبلها ، فقد انطفأت الشمس وطاقاتها الحرارية التي كانت تسلطها على مياه البحار والمحيطات فيتصاعد البخار وينعقد في السحب أمطاراً تسيل على الأرض فتحييها بعد موتها وتنبت نباتاً من كل نوع وتثمر أشجارها ثماراً من كل لون . إن هذا المطر الذي أسأل الله منه الأنهار وجعل منه كل شيء حتى بقي في مخازنه أو خزائنه الأصلية ولم يعد ينطلق إلى السماء ولا عاد يبعث الحياة إلى الأرض ، فقد أصبح كل شيء فيها على وشك القضاء والموت وأن يفقد كل حركة .

(وَإِذَا الْوُحُوشُ حُشِرَتْ) :

الوحوش جمع وحش وهو مالا يستأنس من حيوان البر . واختلف المفسرون في معنى (حُشِرَتْ) ف قيل معناها بُعِثَتْ ، وإنها تُبْعَثُ كالإنس حتى يُقْتَصَّ لبعضها من بعض ، فيُقْتَصَّ للوحوش التي لا قَرْنَ لها من ذوات القرون ، ثم يقال لها كوني تراباً فتموت . وقيل إنها تُحْشَرُ حتى الذباب للقصاص ، فإذا قُضِيَ بَيْنَهَا رُدَّتْ تراباً ، فلا يبقى منها إلا ما فيه سرور لبني آدم وما يُعْجَبُ به لصورته أو لصوته كالطاووس والبُلبُل ونحوهما . وقال الفخر الرازي : ذهبت المعتزلة إلى أن الله تعالى يحشر الحيوانات جميعها في يوم البعث ليعوضها عن آلامها في الدنيا بالموت أو القتل وغير ذلك ، فإذا عُوِّضَتْ عن تلك الآلام أبى الله بعضها في الجنة وأفى بعضها حسب مشيئته ، وأما أهل السنة فعندهم أن الله لا يجب عليه شيء بحكم الاستحقاق والعدل ، ولكنه يحشر الوحوش كلها ليُقْتَصَّ من الظالمة للمظلومة أو من ذوات القرون لمن لا قرون لها ، ثم يقال لها موتي فتموت . وقيل إن الغرض من ذكر بعث الوحوش في الآية على هذا التفسير أنه إذا كانت الوحوش تُحْشَرُ من أجل العدل

الإلهى فأولى أن يُحشَر المكلفون من الإنس والجن . وأيضاً فإن الآية تُشير إلى أن الوحوش التي كانت تنفر في الدنيا من الإنسان وتفرغ إلى الغابات والصحارى فراراً منه تأنس إليه في يوم القيامة حين البعث وكأنها تُذهَلُ عن أنفسها لشدة الأهوال في ذلك اليوم الخطير . وقيل : ليس معنى الحشر في الآية الكريمة البعث ، وإنما معناه ، الجمع أى أن الوحوش حين تبدأ علامة الساعة في الظهور تتجمع ويموج بعضها في بعض من شدة الفزع ، وهذا المعنى أولى من حيث نسق الآيات ، إذ لا تزال تتحدث عن أمارات فناء العالم ، فهو حين تنزل به كوارث هذا الفناء ، فتنتطق الشمس والنجوم ويفقد السحاب أمطاره وتدمر الجبال وتصبح هباء حينئذ تتجمع وحوش الأرض هائمة على وجهها ، لا تفكر في عدوانٍ سواء على أمثالها أم على الإنسان ، فهي في شغل بما نزل بها وبالكون من أهوال . وفي ذلك تجسيم واضح لما يكون حينئذ من كرب عظيم وفزع شديد . وقيل معنى (حُشِرَتْ) في الآية ماتت ، وكان الوحوش تموت من شدة الهول وما يأخذها من الفزع .

(وَإِذَا الْبِحَارُ سُجِّرَتْ ) :

اختلف المفسرون في معنى (سُجِّرَتْ) فقيل معناها مُلِئَتْ من الماء إذ تقول العرب سَجَرْتُ الحوض إذا ملأته ، وقالوا إن البحار يفيض بعضها إلى بعض فتصير بحراً واحداً ، إذ يرفع الله الحاجز الذى ذكره في آية سورة الرحمن ، قائلاً : (مَرَجَ الْبَحْرَيْنِ يَلْتَقِيَانِ بَيْنَهُمَا بَرْزَخٌ لَا يَبْغِيَانِ) فالبرزخ أو الحاجز يُرْفَعُ وتتفجر مياه البحار ويعم ذلك في بحار الأرض كلها وتصبح بحراً واحداً ، يختلط . فيه العذب بالمالح . واحتج أصحاب

هذا التفسير بآية سورة الانفطار : (وَإِذَا الْبِحَارُ فُجِّرَتْ) وحاولوا أن يعللوا لصيرورة البحار بحراً واحداً ، فقالوا إن الجبال تندك ويتطاير ترابها الهائل فلا جرم أن ينصب في أغوار الأرض حينئذ ، وهي البحار ، فتملوها ويصبح وجه الأرض مستوياً مع قاع البحار ، وبذلك تصبح بحراً واحداً مسجوراً أو ممتلئاً . وواضح ما في ذلك من تكلف . وقيل معنى (سُجِّرَتْ) مُلِئَتْ ناراً من سَجَرِ التَّنُّورِ إِذَا مَلَّاهُ بِالْحَطْبِ لِيُوقِدَهُ نَاراً ، أو بعبارة أخرى إِذَا أَحْمَاهُ بِالْوَقُودِ ، وَكَانَ مَعْنَى (سُجِّرَتْ) أَوْقَدَتْ . وللمفسرين تعليقات كثيرة لوجود النار في البحار حينئذ ، فقيل إن النيران موجودة تحت قيعان البحار ، وحرارتها لا يصل أثرها إلى ما فوقها من المياه لينتفع أهل الأرض بها ، فإذا انقضت مدة الدنيا رُفِعَ الغشاء بين المياه وتلك النيران فتستحيل المياه حميماً . وقيل إن المياه تتبخَّرُ بتأثير تلك النيران ولا يبقى في البحار قطرة وتيبس قيعانها وتمتلئ بتراب الجبال ؛ وتصير البحار والأرض كلها بساطاً واحداً . والتفكير في كيفية ملء البحار بالنار أو إيقادها بها مما لا يعلم حقيقته إلا الله ، وبالتالي لا نستطيع أن نجزم بأن ذلك سيكون عن طريق براكين أو زلازل أو تفجرات لنيران سائلة في باطن الأرض وفي قيعان بحارها ، إنما علينا أن نؤمن بأن البحار تُسَجَّرُ يوم القيامة أو قبيل وقوعه مباشرة فتضطرم ناراً تتعالى فيها ألسنة اللهب . ولن يعجز الله ذلك لنحاول تصوره ، فقدرتة لا يعزُّ عليها شيء في الوجود ، وهو قادر على أن يحيل الماء ناراً متأججة ، فكل ما على الأرض من بحار وغير بحار بيمينه يصرفه كيف يشاء . وقد عرفنا في دراسة سورة الرحمن أن الأرض كما جاء في سورة إبراهيم : تُبَدَّلُ غَيْرَ الْأَرْضِ ، يبدل كل ما فيها ، فالجبال تصبح سراباً والبحار تصبح تنوراً

واقداً وتتشقق قشرتها الظاهرة وتمزق ، وتُخرج كل ما في باطنها من دفائنها ومن أفلاد كبدها من الإنس . ويروى عن أبي بن كعب الصحابي الجليل أنه علّق على هذه الآية والآيات الخمس قبلها ، فقال : « ست آيات قبيل يوم القيامة ، بينا الناس في أسواقهم إذ ذهب ضوء الشمس وبدت النجوم فتحيروا ودهشوا ، فبيناهم كذلك ينظرون إذ تناثرت النجوم ، فبيناهم كذلك إذ وقعت الجبال على وجه الأرض فتحرّكت واضطربت واحترقت فصارت هباءً منثوراً ، ففرغت الإنس إلى الجن ، والجن إلى الإنس ، واختلطت الدوابُّ والوحوش والهوامُّ والطيور وماج بعضها في بعض فذلك قوله تعالى : (وَإِذَا الْوُحُوشُ حُشِرَتْ) فحينئذ تقول الجن للإنس : نحن نأتىكم بالخبر ، فينطلقون إلى البحار فإذا هي نارٌ تاجّج وتلهّب ، فبيناهم كذلك إذ تصدّعت الأرض صدعة واحدة إلى الأرض السابعة السفلى وإلى السماء السابعة العليا ، فبيناهم كذلك إذ جاءتهم ريح فأماتتهم جميعاً » . وقد تلت هذه الآيات الست ثمانى آيات في تصوير يوم القيامة وما يكون به من البعث والنشور .

(وَإِذَا النُّفُوسُ زُوِّجَتْ) :

من المفسرين مَنْ ذهب إلى أن النفس غير الروح وأن في الإنسان نفساً وجسداً وروحاً بينهما مثل شعاع الشمس ، فالنفس هي التي بها العقل والتمييز ، والروح هي التي بها الحياة والأنفاس والحركة . والصحيح أن النفس والروح شيء واحد . وتشهد بذلك الآثار الصّحاح ، من ذلك حديث أمّ المؤمنين أم سلمة إذ قالت : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « إن الروح

إِذَا قُبِضَ تَبِعَهُ الْبَصَرُ » يشير إلى أن بصر الميت يَشْخُصُ حين تخرج روحه منه وكأنما يتبعُ بصره روحه . وعن أبي هريرة قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « تحضر الملائكة عند الموت ، فإذا كان الرجل صالحاً قالوا اخْرِجِي أَيْتَهَا النفس الطيبة كانت في الجسد الطيب ، اخْرِجِي حميدةً وَأَبْشِرِي بِرُوحٍ وَرِيحَانٍ وَرَبٍّ رَاضٍ غَيْرِ غَضْبَانَ ، فلا يزال يُقال لها ذلك حتى تخرج ، ثم يُعْرَجُ بها إلى السماء » . والنفس لطيفة ربانية لا علم لأحد بِسِرِّهَا مع معاشرتنا لها طوال حياتنا ودوام المرافقة لها والصحبة في اليقظة والمنام ، ومع ذلك لم يصل أحد إلى معرفة كُنْهها وحقيقتها فقد استأثر الله بمعرفة ذلك لنفسه ، يقول جَلَّ شَأْنُهُ في سورة الإسراء : (وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي وَمَا أُوتِيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلاً) . وقال الغزالي في الإحياء : الروح في الآيَة هي النفس الناطقة وهي اللطيفة الربانية التي لا تفتنى بفناء البدن وتبقى بعد الموت، والله يقول إنها مما استأثر لنفسه بعلمه من الأسرار الخفية ، ويقول ما معناه إن هذه الروح روحانية ، وهناك روح حيوانية ، وهي التي تفتنى بفناء البدن ، ومركزها القلب ، وهي التي تبعث في الجسم قواه - من الحياة ومن الحواس والطاقات الجسمانية ، وهي تنتشر في الجسد بواسطة العروق الضواريب إلى سائر أجزاء البدن، وهي التي تبعث الحياة في الجسم على نحو ما يبعث السراج النور في البيت . واختلف المفسرون في المراد بزواج النفوس ، ومعروف أنه يقتضى المقارنة ، وقيل المراد به في الآيَة اقتران كل شخص مع من يشاكله ، فَيُقَرَّنُ الفاجر مع الفاجر والصالح مع الصالح . وقيل إن الآيَة تشير إلى آيات سورة الواقعة وما جاء فيها من أن الناس يوم القيامة أزواج ثلاثة : السابقون المقربون ، وأصحاب اليمين ، وأصحاب الشمال ، فكل شخص يُقَرَّنُ بطائفته . وقيل يُقَرَّنُ كل فرد بأفراد أمته ، فالمسلمون معاً ،

والكافرون معاً ، والنصارى معاً . وقيل يُقَرَّن كل شكل بشكله من أهل الجنة ومن أهل النار ، فالمبالغ في الطاعة إلى مثله ، والمتوسط إلى مثله ، والعاصي إلى مثله في عصيانه ، فكل شخص يُقَرَّن بنظيره ، وكأن المعنى إذا النفوس قُرنت إلى أشكائها في الجنة والنار ، كما قال تعالى في سورة الصافات : ( احشُرُوا الَّذِينَ ظَلَمُوا وَأَزْوَاجَهُمْ ) أى أشياعهم وأشباههم . وقيل : بل أزواجهم نساؤهم اللاتي رافقنهم على الكفر . وقيل يُقَرَّن المطيع بمن دعاه إلى الطاعة من الأنبياء والمؤمنين ويُقَرَّن العاصي بمن أغواه من شيطان أو إنسان . وقيل تُقَرَّن النفوس بأعمالها ، عُدَّ اختصاصها بها كالتزويج ، فالنفوس الطيبة تُزَوَّجُ بأعمالها الحسنة والنفوس العاصية تُزَوَّجُ بأعمالها السيئة . وقيل تُزَوَّجُ نفوس المؤمنين بالحوار، ونفوس الكفرة تُقَرَّنُ بالشياطين . وأولى من هذه الأقوال جميعاً قول عكرمة تلميذ ابن عباس إن معنى الآية أن النفوس تُزَوَّجُ بالأبدان ، فالتزويج إنما يراد به بعث الناس وتزويج النفوس الخيرة والشريرة بأجسادها . ومرأ بنا في سورة الرحمن أن القرآن ذكر مراراً وتكراراً أن البعث لن يكون بالنفوس أو الأرواح وحدها ، كما ذهب إلى ذلك بعض متفلسفة الإسلام إنما سيكون بالأجساد والنفوس معاً ولا عبدة بما يقال من أن الأجساد تتحلل بعد الموت فكيف تُبْعَثُ بهيئتها المادية ؟ إذ قلنا هناك إن تحللها لا يحول بين الله جلَّ ثناؤه وبين بعث الناس في أجساد مادية حقيقية ، أما كيفية ذلك فيخرج عن مدار علمنا ، وقد قال في سورة الواقعة : ( وَنُنشِئُكُمْ فِيهَا لَّا تَعْلَمُونَ ) فهي نشأة أخرى لا يحيط علمنا فيها بأي شيء ، وينبغي التسليم بكل ما جاء عنها في الذكر الحكيم دون تأويل أو مراجعة أو معارضة .

(وَإِذَا الْمَوْءُودَةُ سُئِلَتْ \* بِأَيِّ ذَنْبٍ قُتِلَتْ) :

الموءودة المدفونة في القبر حَيَّةٌ ، من الوأد ، وأصله في اللغة الثقل ، سميت بذلك لما يُطْرَحُ عليها من التراب فيئودها أو بعبارة أخرى يثقلها حتى تموت ، وكان ذلك شائعاً بين أعراب نجد . ويقول الزمخشري : كان الرجل إذا وُلِدَتْ له بنت ، فأراد أن يستحبيها ألبسها جُبَّةً من صوف أو شَعْرٍ تَرَعَى له الإبل والغنم في البادية ، وإن أراد قتلها تركها حتى كانت سُداسية أى بنت ست سنين ، فيقول لأُمها : طيِّبِها وزَيِّنِها حتى أذهب بها إلى أحمائها أو أحوالها ، وقد حفر لها بئراً في الصحراء ، فيبلغُ بها البئر ، فيقول لها : انظري فيها ، ثم يدفعها من خلفها ، ويهيل عليها التراب ، حتى يستوى البئر بالأرض . ويُقال إن المرأة في الجاهلية كانت إذا حملت حَفَرَتْ حُفْرَةً ، حتى إذا جاءها المخاض وقفت عليها ، فإن ولدت بنتاً رمت بها في الحفرة ورددت التراب عليها ، وإن ولدت ابناً عادت إلى أهلها فرحة . ويقال إن بنى تميم كانوا أكثر القبائل وأداً لبناتهم حينئذ ، ويروى أن أحد ساداتهم ، وهو قيس بن عاصم حين وفد على رسول الله صلى الله عليه وسلم وعرف تحريم الإسلام لبوادِ البنات قال له : إني وأذتُ ثمانى بنات كُنَّ لي في الجاهلية فماذا أفعل ؟ قال الرسول عليه السلام : أعتقِ عن كل واحدة منهن رَقَبَةً « أى عبداً » فقال : يا رسول الله إني صاحب إبل ، فقال له : أهدي « أفدي » عن كل واحدة منهن بَدَنَةً « ناقة يضحى بها » إن شئت . وكانوا يدفنون بناتهم أحياء لإحدى خصلتين : الأولى مخافة الفقر والإملاق ، وفي ذلك يقول جَلُّ شأنه في سورة الإسراء : (وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ خَشْيَةَ إِمْلَاقٍ

نَحْنُ نَرْزُقُهُمْ وَإِيَّاكُمْ إِنْ قَتَلْتُمْ كَانَتْ حِطَّةً كَبِيرًا . والمراد بالأولاد البنات وبالقتل الوأد ، والإملاق الفقر والحاجة . وقد تلافى جَلَّ ثناؤه فقال لا تخشوا الفقر وعجزكم عن الإنفاق عليهن فإننا نرزقهن كما نرزقكم . ثم قال إن قتلهن إثم عظيم ، لما يحمل من وقف التوالد والقضاء على النوع الإنساني قضاء مبرماً . والخصلة الثانية الخوف من سبى البنات واسترقاقهن ، وكانت الحرب دائرة في الجاهلية بين القبائل وكانت المرأة إذا سببت أصبحت مسترققة مملوكة لمن سببها ، فتاة أو متزوجة ، وهو ما جعل سادتهم من مثل قيس بن عاصم التميمي يتورط في هذه الجناية الآثمة ، وقد أشار الله جَلَّ ثناؤه إلى ذلك في قوله بسورة النحل : ( وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ الْبَنَاتِ سُبْحَانَهُ وَلَهُمْ مَا يَشْتَهُونَ وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِالْأُنثَىٰ ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ يَتَوَارَىٰ مِنَ الْقَوْمِ مِنْ سُوءِ مَا بُشِّرَ بِهِ أَيُمْسِكُهُ عَلَىٰ هُونٍ أَمْ يَدُسُّهُ فِي التُّرَابِ أَلَا سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ) . وعبر الله عن الكآبة التي تُرسم على وجوه الآباء حين يبشرون بالأنثى باسوداد الوجه وبكظم النفس غمًا وغيظًا ، وقال إن أباهما يتبردد بين إمساكها على ما قد يسببه له هذا الإمساك من هوان الأسر . وذلك الاسترقاق وبين دسها في التراب وأودها حية تخلصاً من العار المنتظر . ورد القرآن عليهم ما كانوا يقولونه من أن البنات لسن لهم ، إنما هن لله ، تشبيهاً لهن بالملائكة وما كانوا يزعمون فيها من أنها بنات الله ، وكان الله ، عز وجل ، أحق لذلك بهن منهم ، وهو بهتان عليه وافتراء شديد . وسؤال المودة كما صرحت بذلك الآية عن الذنب الذي قتلت بسببه ووئدت تحت التراب حية إنما هو سؤال توبيخ لقاتلها وسخط شديد على فعلته ، حتى كأنه أسقط عن درجة الخطاب ، فلم يخاطب مباشرة ، إنما خوطبت

من وقعت عليها الجناية كما يقال للطفل الذي ضُرب بغير حق لِمَ ضُرِبْتَ وما ذنبك؟ والقائل يعرف أنه ضُرب بغير ذنب. وهو مثل قوله تعالى لعيسى عليه السلام في سورة المائدة: (أَأَنْتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَأُمَّيَ إِلَهَيْنِ مِنْ دُونِ اللَّهِ) وعيسى لا يُقصد بهذا التبكيت والتوبيخ، وإنما يُقصد من اتخذه هو وأمه إلهين. وكذلك سؤال الموعودة توبيخ لوائدها وتبكيت، ووجه ذلك أن المجنى عليه إذا سُئل بمحضر الجاني ونُسبت إليه الجناية دون فاعلها الحقيقي أوبدون ذكر اسمه كان ذلك باعثاً لفاعلها، أو جانيها، على التفكير في جنائته وأنه يستحق العقاب الأليم، وهو نوع من الاستدراج في أسلوب تعريض بليغ. وقد اختار الله هذه الجناية القطيعة للحساب عليها يوم الجزاء، ليشير إلى أن الإنسان مجزى بأعماله وبجميع جنائياته، وأيضاً ليجسم إثمها القطيع وليقتلعه من نفوس العرب من تميم وغير تميم. وقد استنبط المفسرون والفقهاء من الآيتين الكريمتين أن أطفال المشركين الذين يموتون صغاراً لا يعدّون بكفراً بأبائهم وإشراكهم، لأن التعذيب لا يستحقه أحد بدون ذنب يقع منه.

(وَإِذَا الصُّحُفُ نُشِرَتْ) :

الصحف صحف الأعمال، ونشرها فتحها بعد أن كانت مطوية، إذ نُطوى عند الموت وتُنشر عند الحساب، وهي الصحف التي كتب فيها الملائكة ما فعله أهلها من خير أو شر، يراها الناس منشورة يوم القيامة، ويقف كل إنسان على صحيفته، ويعلم ما فيها، فيقول كما جاء في سورة الكهف: (مَالِ هَذَا الْكِتَابِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّا أَحْصَاهَا) وهو لإحصاء نهضت به رسل الله من الملائكة كما جاء في سورة الزخرف: (أَمْ يَحْسَبُونَ



مبينة لا يرتابون فيها يوم الجزاء ، ويعبر عن معنى ذلك الثبوت والبيان بنشر صحف الأعمال ، أما كَوْنُ الصحف على مثال الأوراق التي نكتب عليها في الدنيا أو على مثال الألواح أو ما يشبه ذلك مما جرى استعماله للكتابة عليه فذلك مما لم يصل علمنا إليه ، ولن يصل إليه بمجرد العقل ، ولم يُرَوَّ عن المعصوم صلى الله عليه وسلم فيه نصُّ قاطع . وقد ذكرنا في مواضع مختلفة أن بيننا وبين عالم القيامة حجاباً ، إذ هو نشأة ثانية وخلق ثان وكل ما فيه إنما يقربه إلينا القرآن الكريم ويجب علينا الإيمان بكل ما جاء في وصفه والاعتقاد به اعتقاداً جازماً مسلمين بأنه من الغيب الذي تقصر عقولنا عن إدراكه ، ألا ترى إلى الله جل ثناؤه يقول للرسول عليه السلام في سورة الأحقاف : ( قُلْ مَا كُنْتُ بِدَعَاٍ مِنَ الرُّسُلِ وَمَا أَدْرِي مَا يُفْعَلُ بِي وَلَا بِكُمْ ) وإذا كان الرسول نفسه يؤمر بأن يقول إنه لا يدري بالضبط. ماذا سيحدث يوم القيامة فأولى لنا أن نكف أنفسنا عن الحدس والتخمين ، وأن لا نتصور الحياة الآخرة في صورة دنيوية بحتة ، فإن كل ما جاء في القرآن من هذا التصوير يقصر علمنا عن معرفة حقيقته وماهيته .

(وَإِذَا السَّمَاءُ كُشِطَتْ) :

الكشط رَفَعُ شَيْءٍ عَنْ آخِرِ غَطَّاهُ وَعَشَّاهُ مِنْ فَوْقِهِ ، أو هو نزع شيء عن آخر ملتصق به التصاقاً شديداً كما يُكشَطُ الجلد عن الشاة المذبوحة . وكان السماء يوم القيامة تُكشَطُ كما يكشط. الجلد عن الكبش وغيره ، فالسما تنزع من مكانها كما ينزع الغطاء عن الشيء أو كما ينزع السقف . وهو تصوير لما سيحدث من تغير في الكون ، وأنه لن تظل الأرض كما هي ،

وكذلك لن تظل السماء ، أما الأرض كما جاء في هذه السورة فستصبح  
جبالها هباءً وستصير بحارها أتوناً ضخماً تتطاير منه السنة اللهب والشرر ،  
وأما السماء فستنطق الشمس مصباحها الكبير ، وستنطق جميع المصابيح  
الصغيرة من النجوم ، حتى إذا بُعثَ الناس ونظروا من حولهم وجدوا أعمالهم  
منشورة أمام أبصارهم ، ولم يجدوا السماء التي تعودوا ، فقد (كُشِطت)  
أو بعبارة أخرى أُزيلت ونُزعت ، ولم يعد هناك أرض وسما ، فكل شيء  
قد تغير ، كما قال تعالى في سورة إبراهيم : (يَوْمَ تُبَدَّلُ الْأَرْضُ غَيْرَ الْأَرْضِ  
وَالسَّمَوَاتُ) . لم تعد السماء التي كانوا يعرفونها قائمة ولم تعد تنير فيها  
الشمس ولا عاد القمر يضيء فيها ولا عادت النجوم تلمع على صفحاتها ،  
فكل ذلك طُمس وطُمست معه السماء ، وأصبح الناس هم والكون جميعاً في  
نشأة جديدة ، كان بينهم وبينها حجاب صفيق ، فُرفِعَ الحجاب وأزيل  
النقاب ، وكان كل ما كنا نألفه في كوننا قد انتهى وانمحي ، وانمحت  
معه السماء ، حتى غدت كأنها كانت غطاءً للأرض ونُزِعَ عنها نزعاً ، نُزِعَ هو  
وكل ما كنا نراه في عالمنا الدنيوي المحسوس بحواسنا الظاهرة من جبال وبحار  
وسماء وشمس وقمر ونجوم ، وأصبح الناس في عالم جديد أو في كون جديد  
لا صلة بينه وبين الكون القديم ، كون نزول فيه الحجب التي كانت تحول  
بيننا وبين رؤيته ومشاهدته ، إذ كُشِفَ عنا الغطاء وزالت عن أبصارنا  
الغشاوة ، ولم يعد أمام الناس إلا إحدى دارين إما سعيير الجحيم وإما جنة  
النعيم . ومن طريف ما يؤثر عن علي بن أبي طالب رضي الله عنه أنه قال :  
« لو كُشِفَ غي الغطاء ما ازددت يقيناً » .

## (وَإِذَا الْجَحِيمُ سُعِّرَتْ) :

قال بعض المفسرين إن الجحيم هي الدَّرَكَةُ السادسة في النار ، والدركات، كما مرَّ بنا ، على التوالي جهنم ثم اللَّظَى ثم الحطمة ثم السعير ثم سقر ثم الجحيم ثم الهاوية، غير أن من يتتبع الآيات القرآنية يجد كل اسم من هذه الأسماء يُطَلَّقُ على النار بعامة . والجحيم مأخوذ من الجَحْمَة وهي شدة تَأَجَّج النار ، والجاحم الجمر شديد الاشتعال . وقد توَعَّد الله بالجحيم الكفار والطَّغاة والفُجَّار، وقال في سورة الصافات ، كما مرَّ بنا في غير هذا الموضع، إن طعام أهل النار من العُصاة شجرة الزُّقُوم، وقال إن أصول هذه الشجرة تمتد في قعرها ، ثم تتفرع فروعاً تحمل ثماراً بِشَعَّةٍ بشاعة رعوس الشياطين، وإنهم ليطعمون منها طعاماً مُراً كأنه شظايا من نار، فيفزعون إلى ماء يُطْفِئُون به نارها الملتهبة في بطونهم ، فلا يجدون سوى حميمٍ أو ماء حارٍّ لا يُطَاق، فيترامون عليه، يشربون منه ، بل يُصَبُّ على رعوسهم صَبًّا ، فيقع في حلوقهم ويطونهم يَغْلَى وَيَكْوَى كما يكوى ثمر الزُّقُوم ، يقول جَلَّ شأنه في تلك السورة بعد أن تحدث عن نعيم أهل الجنة : ( أَذَلِكَ خَيْرٌ نَزْلاً أَمْ شَجَرَةُ الزُّقُومِ . إِنَّا جَعَلْنَاهَا فِتْنَةً لِلظَّالِمِينَ . إِنَّهَا شَجَرَةٌ تَخْرُجُ فِي أَصْلِ الْجَحِيمِ طَلْعُهَا كَأَنَّهُ رُءُوسُ الشَّيَاطِينِ فَإِنَّهُمْ لَا كَلُونَ مِنْهَا فَمَا لَيْسُوا مِنْهَا الْبُطُونَ ثُمَّ إِنَّ لَهُمْ عَلَيْهَا لَشَوْباً مِنْ حَمِيمٍ ) . وهو شَوْبٌ يشوب ما طعموه ويخالطه فيقطع أمعاءهم . وذكرت الجحيم أيضاً في عذاب الكافر الشحيح المتناهي في الشحِّ بسورة الحاقة ، وقد أمرَ زبانيتهما بأنَّ يجمعوا يديه إلى عنقه بالقيود ويحيطوا جسده بسلاسل ويشلُّوه بها إلى الجحيم، يقول جَلَّ شأنه : ( خُلِّوْهُ فَعَلُّوْهُ

ثُمَّ الْجَحِيمَ صَلْوَهُ ثُمَّ فِي سِلْسِلَةٍ ذَرْعُهَا سَبْعُونَ ذِرَاعاً فَاسْلُكُوهُ) وَسُوقَهُ  
 وَجُرُّهُ عَلَى وَجْهِهِ حَتَّى يِنَالَ عِقَابَهُ الْأَلِيمَ . وَ (سُعِّرَتْ) أَلْهَبَتْ وَأَجَجَتْ وَأَوْقَدَتْ  
 لِلْعَصَاةِ إِيقَادًا شَدِيدًا . وَقَالَ بَعْضُ السَّلَفِ : سَعَّرَهَا وَأَجَجَهَا غَضَبَ اللَّهِ  
 وَخَطَايَا الْكَافِرِينَ . وَاحْتَجَّ بِهَذِهِ الْآيَةِ بَعْضُ أَهْلِ الْمَسْنَةِ عَلَى الْمُعْتَزِلَةِ الْقَائِلِينَ  
 بِأَنَّ النَّارَ وَالْجَنَّةَ إِنَّمَا يَخْلُقَانِ جَمِيعًا فِي النَّشْأَةِ الثَّانِيَةِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ، فَإِنَّ  
 تَسْعِيرَهَا زِيَادَةً فِي التَّهَابِهَا لِأَحْدُوثِهَا ابْتِدَاءً ، فَهِيَ قَدْ حَدَثَتْ أَوْ خُلِقَتْ  
 قَبْلَ الْمَعَادِ ، أَمَا مَا يَكُونُ فِي الْمَعَادِ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ فَهُوَ التَّسْعِيرُ وَالتَّأَجُّجُ وَالزِّيَادَةُ  
 فِي اللَّهيبِ وَالاشْتِدَادِ . وَعَلَى كُلِّ مُسْلِمٍ أَنْ يَؤْمِنَ إِيمَانًا كَامِلًا بِكُلِّ مَا جَاءَ  
 فِي الذِّكْرِ الْحَكِيمِ مِنْ عَذَابِ الْجَحِيمِ ، كَمَا صَوَّرَهُ اللَّهُ ، أَمَا أَنَّ الْجَحِيمَ  
 أَوْ النَّارَ سَتَكُونُ عَلَى شَاكِلَةِ نَارِنَا وَوَقُودِهَا الدَّنِيوِيُّ مِنَ الْحَطْبِ وَالبِتْرُولِ  
 وَغَيْرِهِمَا فَذَلِكَ يَخْرُجُ عَنِ إِطَارِ مَعْرِفَتِنَا لِأَنَّ أُمُورَ الْآخِرَةِ جَمِيعُهَا أَوْ جُمْهُورُهَا  
 عَلَى خِلَافِ مَا نَعْرِفُ فِي نَشَاتِنَا الْأُولَى ، وَهِيَ نَشْأَةٌ لَا تَسْتَطِيعُ حَوَاسِنَا الدَّنِيوِيَّةُ  
 أَنْ تَدْرِكَهَا إِدْرَاكًا دَقِيقًا .

(وَإِذَا الْجَنَّةُ أُزْلِفَتْ) :

(أُزْلِفَتْ) مِنْ الزُّلْفَةِ وَهِيَ الْقُرْبُ كَمَا قَالَ تَعَالَى فِي سُورَةِ الْمُلْكِ :  
 (فَلَمَّا رَأَوْهُ زُلْفَةً) أَي قَرِيبًا ، فَأُزْلِفَتْ مَعْنَاهَا قُرْبَتْ وَأُذْنِيَتْ . وَقِيلَ لِيهِمْ  
 يَقْرَبُونَ مِنْهَا لِأَنَّهَا تَزُولُ عَنْ مَوَاضِعِهَا ، فَالْمُرَادُ مِنَ التَّقْرِيبِ الْعَكْسَ لِلْمَبَالِغَةِ  
 كَمَا فِي قَوْلِهِ تَعَالَى بِسُورَةِ الْأَحْقَافِ : (وَيَوْمَ يُعْرَضُ الَّذِينَ كَفَرُوا عَلَى النَّارِ)  
 حَيْثُ تُعْرَضُ النَّارُ عَلَيْهِمْ تَحْقِيرًا وَتَحْسِيرًا ، فَقَلْبٌ لِلْمَبَالِغَةِ . وَقِيلَ : الْمُرَادُ  
 الْإِزْلَافَ وَالتَّقْرِيبَ الْمَعْنَوِيَّ وَهُوَ جَعْلُ أَهْلِهَا مُسْتَحْقِينَ لِذَخُولِهَا مُقْرَبِينَ مِنْهَا

مكرمين . وقيل إنها تقرب فعلا من المتقين كما تقرب النار من المحشر للكافرين . وقيل : بل تقرب من المتقين بتسهيل مسيرتهم إليها ، والمراد خواصهم إذ هم ثلاثة أصناف أو أقوام : قوم يُحشرون إلى الجنة مُشاةً ، وهم الذين قال الله فيهم بسورة الزمر : ( وَسِيقَ الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ إِلَى الْجَنَّةِ زُمَرًا ) وهم الجمهور ، وقوم يُحشرون إلى الجنة رُكباناً تَكْرِيماً وتشريفاً ، وهؤلاء هم الخواص ، وقوم تقرب الجنة منهم مكاناً غير بعيد بحيث يرونها وينظرون إليها قبل دخولها ، وهم المرادون بالآية ، وهم خواص الخواص . وقيل بل أهل الجنة جميعاً يذهبون إلى الجنة على النجائب مسرعين (زُمَرًا) أى جماعة بعد جماعة : يدخلها أولاً المُقَرَّبُونَ ثم الأبرار ثم الذين يلونهم ثم من يأتى بعدهم ، كل طائفة مع مَنْ يناسبها : الصَّديقون مع أمثالهم ، والشهداء مع أقرانهم ، وكل فرد فى صنف مع صنفه، حتى إذا جاءوها فُتحت لهم أبوابها . وفى الحديث : « ما منكم من أحد يتوضأ فيبلغ أو فيسبغ الوضوء ثم يقول أشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً عبده ورسوله إلا فُتحت له أبواب الجنة الثمانية يدخل من أيها شاء » والثانية فى الحديث لا يراد بها الحصر ، وإنما يراد الإشارة إلى كثرة أبوابها . وفى الحديث أيضاً أن « أول زمرة يدخلون الجنة على صورة القمر ليلة البدر ، والذين يلونهم على صورة أشد كوكب دريٌّ فى السماء إضاءة » . ويستقبلهم خزنتها من الملائكة محييين مهنئين قائلين كما جاء فى سورة الزمر : ( سَلَامٌ عَلَيْكُمْ طِبْتُمْ فَادْخُلُوهَا خَالِدِينَ ) .

( عَلِمَتْ نَفْسٌ مَّا أَحْضَرَتْ ) :

تنكير كلمة (نفس) فى الآية يفيد العموم أى كل نفس كما جاء فى سورة

آل عمران : (يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُّحْضَرًا وَمَا عَمِلَتْ مِنْ سُوءٍ تَوَدُّ لَوْ أَنَّ بَيْنَهَا وَبَيْنَهُ أَمَدًا بَعِيدًا) بُعد ما بين المشرق والمغرب ، وكان الله يحلّز العباد عاقبة أعمالهم في الحياة وأنه ينبغي أن يسارعوا إلى عمل الخير قبل أن يندموا ولا ينفعهم الندم . والمراد بقوله تعالى في الآية : (مَا أَحْضَرَتْ) أعمالها الخيرة والسيئة التي عملتها في دنياها ، وإحضار النفس لها إما بما رآته مرتسماً في صحائفها كما مرّ بنا في آية : (وَإِذَا الصُّحُفُ نُشِرَتْ) ، فهي ترى أعمالها منشورة أمامها وكأنها أحضرتها بيديها ، وإما تراها فعلاً وكان أعمال كل شخص تجسّم أمام عينيه في صور أخروية لا نعرفها . وعلم النفس بأعمالها أنها تراها وتبصرها . وقيل بل المراد أنها تعلم علم اليقين جزاءها وما ستنالها من الثواب والعقاب على أعمالها ، فإن في ذلك تمام العلم والمعرفة . والآية جواب (إِذَا الشَّمْسُ كُوِّرَتْ) وما عطف عليها من صفات الدنيا قبيل المعاد وصفات الآخرة ، وهي جميعها اثنتا عشرة صفة : ست للآخرة ، وست للدنيا . وليس معنى ذلك أن النفس تعلم ما عملت منذ انبهار الكون واضطرابه قبيل المبعث ، فهي لا تعلمه ولا تتحققه إلا في الآخرة وحين تنشر الصحف ، ولكن لما كان بعض تلك الصفات من مبادئ البعث والجزاء وبعضها من روافده ، أو بعبارة أخرى من مبادئ علمها بالصحف وبعضها من تواليه نُسب علم النفس بما أحضرت إلى كل هذا الزمان تهويلاً للخطب وزجراً عن المعاصي . وعن عمر بن الخطاب أنه قرأ السورة فلما بلغ هذه الآية قال : لهذا أجرى الحديث ، وقيل : قال : لهذا أجرى القصة . وفي الصحيحين قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « ما منكم من أحد إلا وسّيكلمه الله ما بينه وبينه ترجمان فينظر ، أيمن منه

فلا يرى إلا ما قدمه ، وينظر أشأم منه فلا يرى إلا ما قدم بين يديه ، فتستقبله النار ، فمن استطاع منكم أن يتَّقِيَ النار ولو بشِقِّ تَمْرَةٍ فَلْيَفْعَلْ .

### ( فَلَا أُقْسِمُ بِالْخُنُيسِ \* الْجَوَارِ الْكُنُيسِ ) :

أقسم الله بالسماء والكواكب والنجوم في القرآن مراراً للدلالة على قدرته وما أودعه الكون من نظام محكم وتدبير متقن ، وليلفت إلى أنها من صنعه ومخلوقاته ، فمهما أحسَّ الناس من منافع فيها فإنه ينبغي أن يردوها إلى من وهبها لهم ، وأن لا يعبدوها من دونه ، فهو الجدير بالعبادة لما أودع فيها من المنافع والأسرار ، ويصرِّح بذلك جَلَّ ثناؤه في سورة النَّجْمِ إذ يقول إنه : ( رَبُّ الشُّعْرَى ) وهى نجم نير في السماء كانوا يعبدونه ويروون فيه الأساطير ، ويقول الله أيضاً في سورة فُصِّلَتْ : ( وَمِنْ آيَاتِهِ اللَّيْلُ وَالنَّهَارُ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ لَا تَسْجُدُوا لِلشَّمْسِ وَلَا لِلْقَمَرِ وَاسْجُدُوا لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَهُنَّ ) ، فهو الذى خلق الكوكبين وهبهما نورهما ولو شاء لطمس هذا النور ، إنه واهبه وصانعه ، وهو لذلك الخلق بالعبادة . ويقول إنهما من آياته هما وما يتبعهما من اختلاف الليل والنهار ، آيات تدل على قدرته ووحدانيته . ولقوتهما وقوة الأجرام والنجوم في التعبير عن هذه الدلالة كرر الحديث عنها جميعاً في القرآن وأقسم بها ، ليعبدوا الرب دون المربوب والصانع دون المصنوع . والنفي في قوله : ( فَلَا أُقْسِمُ ) لتأكيد القسم ، وكأن النفي خرج عن وظيفته ليؤدى معنى الرد والزجر ، كأنه قيل : لا ، أو كلا ، ثم عدل إلى القسم ، وهو أسلوب من أساليبه يفيد التأكيد فيه . وقيل : بل النفي على حقيقته وأنه يفيد تعظيم المقسم به وأنه عظيم في نفسه وليس في حاجة

إلى قسم ، كما تصور ذلك سورة الواقعة في قوله تعالى : ( فَلَا أُقْسِمُ بِمَوَاقِعِ  
النُّجُومِ وَإِنَّهُ لَقَسَمٌ لِّوَيْتَلْمُونَ عَظِيمٌ ) . والخُنْسُ جمع خانس وخانسة  
من الخنوس وهو التأخر ، يقال خَنَّس الرجل عن القوم إذا تأخر ، وأصل  
الخنوس الرجوع إلى خلف ، وقد تدل المادة على الاختفاء ، ومنه سُمِّيَ  
الشیطان خَنَّاساً ، وفي الحديث : « الشيطان يوسوس إلى العبد فإذا ذكر الله  
خَنَّس » . ويقال في أنفه خَنَّس وهو انخفاض القصبه وعرض الأرنبة ،  
ومنه تسمى البقرة الوحشية بالخنساء ، وقد تسمى بذلك بعض الإناث  
نعتاً بها مثل الخنساء الشاعرة المعروفة . والخُنْسُ في الآیة الكواكب تخنس  
بالنهار فتختفي تحت ضوء الشمس ولا تُرى ، وكأما يراد بها الكواكب الخمسة  
الدَّرَارِي ، وهی زُحَلُ والمُشْتَرِي وعطارد والمَرِيخُ والزُّهْرَةُ ، ويمكن أن يضم  
إليها القمر لخنوسه نهاراً والشمس لخنوسها ليلاً ، وبذلك تشمل الخنس  
جميع الكواكب السيارة ، أو بعبارة أخرى كواكب المجموعة الشمسية ،  
ولكل منها فلکها الخاص الذي تجرى فيه وتُشرق وتَغْرُبُ أو تَظْهَرُ وتختفي .  
وقيل : بل هي كل كوكب في السماء ، وقيل بل كل نجم . و (الجوار) جمع  
جارية ، لجريانها الدائب في السماء أو في الكون . و (الكنس) جمع كانس  
وكانسة ، وهي صفة نائلة للكواكب ، وأصلها من كِنَسَ الطَّيْبُ وهو بيته  
الذي يتخذه في الشجر للاستتار فيه من الحر والمطر ، ويقال كنس الوحش  
فهو كانس إذا دخل في كِنَاسِه واستتر فيه . والله يقسم بالنجوم في حال  
كنوسها وغروبها وفي حال اختفائها وتأخرها أو خفت ضوءها وفي حال ظهورها  
وجريانها ، دلالة على قدرته البالغة وحكمته وما أودع الكون من سُنَنِه .  
وقيل : الخُنْسُ في الآية بقر الوحش ، والكنس الطباء التي تستتر في

كُنْسَهَا وبيوتها الشجرية . والأصح حمل الآيتين على الكواكب لذكر الليل والصبح بعدهما ، وأضاف ابن قيم الجوزية إلى ذلك وجوهاً أخرى منها أن البقر والظباء لا تختفي عن العيان اختفاء مطلقاً ، بل لا تزال ظاهرة في الفلوات ، ومنها أن كلمة (الخُنْس) لو كانت جمعاً للأخنس من البقر لقليل الخُنْس بضم الخاء وسكون النون مثل أحمر وحُمر ولو كانت جمعاً للخنساء من البقر لقليل الخنساوات مثل حسناء وحسناوات ، إنما هي جمع خانس مثل صائم وُصوم وقائم وقوم : وبذلك يتعين أن الآية في الكواكب لا في بقر الوحش ولا في الظباء وبخاصة أن القرآن لم يأت فيه قسم بحيوان . وأيضاً فإنه إذا جعل القسم بحيوان لم تتضح الصلة بين القسم والمقسم عليه وهو القرآن ، أما الصلة بينه وبين الكواكب فواضحة ، إذ هي تهدي الناس بأضواءها ليلاً ونهاراً كما يهدي القرآن أمته بأضوائه الربانية العظيمة .

(وَاللَّيْلِ إِذَا عَسْعَسَ \* وَالصُّبْحِ إِذَا تَنَفَّسَ) :

العَسْعَسَةُ من العَس وهو القدح العظيم الممتلئ ، وكأنها الامتلاء من شيء ، ومن هنا قيل إن (عَسْعَسَ) في الآية معناها استكمال امتلاء الظلام ، وهو وقت انتهائه ، أو بعبارة أخرى معناها إدياره . وقيل بل معناها ابتداء امتلائه ، وهو وقت دخوله ، أو بعبارة أخرى معناها إقباله أي إقبال الليل بظلامه . وكان (عَسْعَسَ) من الأضداد ، يُقال لليل إذا أقبل وإذا أدبر ، والمعنيان يرجعان إلى شيء واحد هو ابتداء الظلام في أول الليل وإدياره في آخره . واختلف المفسرون ، فمنهم من رجَّح أن يكون معنى (عَسْعَسَ) أقبل ، ومنهم من رجَّح أن يكون معناها أدبر ، أما من رجح معنى الإقبال فقد حاول

أن يربط بين الآية وتاليتها وبين قوله تعالى في سورة الليل : ( وَاللَّيْلِ إِذَا يَغْشَىٰ وَالنَّهَارِ إِذَا تَجَلَّىٰ ) ، فغشيان الليل للشمس وتغطية ضوءها وستره نظير عَسَمَسْتَه وإقباله . وتجلَّى النهار وانكشافه وظهوره بزوال ظلمة الليل ووضوح ضوءه نظير تنفُّس الصبح وانبلاجه وشروق نوره . وأما مَنْ رَجَّحَ معنى الإدبار في عَسَمَسَةِ اللَّيْلِ فقد ربط بين الآيتين وبين قوله تعالى في سورة المُدَّثِّرِ : ( وَالْقَمَرَ وَاللَّيْلَ إِذْ أَدْبَرَ وَالصُّبْحَ إِذَا أَسْفَرَ ) ، والإدبار نقيض الإقبال ، والإسفار الإضاءة من قولهم سَفَرَ وَجْهَ فُلَانٍ وَأَسْفَرَ إِذَا أَضَاءَ وَأَشْرَقَ حَسَنًا . وقال الراغب : السَّفَرُ كشف الغطاء ، ومنه امرأة سافرة إذا كشفت فناعها عن وجهها . والإسفار يختص باللون مثل : ( وَالصُّبْحَ إِذَا أَسْفَرَ ) أى أشرق لونه ووجهه وأضاء ، وقيل : بل أسفر معناها كَنَسَ إِذْ يَكْنَسُ ضَوْءُ الصَّبْحِ الظلام . وقد اختار ابن قَيِّمَ الجَوْزِيَّةُ أن يكون معنى ( عَسَسَ ) في الآية أدبر . لأن إدبار الليل يليه الصباح دون فاصل ، وهو المناسب مع القسم في سورة المُدَّثِّرِ . أما إقبال الليل فبينه وبين إقبال النهار زمن طويل ، وكأنَّ الله يقسم بالليل في حال تلاشيه من الآفاق والصبح من ورائه يطرده بأنفاسه . وتنفُّس الصبح كما مر بنا تبلُّج أضوائه وإشراقها ، وقيل : بل امتداده حتى يصير نهاراً واضحاً إذ يقال للنهار إذا زاد تنفس ، وقيل بل انشقاقه وانفلاقه كما قال تعالى في سورة الأنعام عن نفسه : ( قَالِقُ الإِصْبَاحِ ) أى يشق به غبشة الفجر عن أضواء الصباح فينير الوجود ، ويذهب الليل بظلامه ويخلفه النهار بأضوائه . وقيل التنفُّس من النَّفَسِ وهو النسيم الذى يخرج من الرِّئَةِ للترويح عن القلب ، وقد استعاره الله لما يقبل مع الصبح من الأضواء ، وكأنها نسيم ، وأنفاس تهب على الوجود لتفرِّج

عنه كُرب الظلام وغمّ سواده . والصلة واضحة بين هذا القسم والقرآن المقسم عليه ، فكما أن الوجود تدبّ فيه الحياة حين يخرج من الظلمات إلى النور كذلك القرآن في حياة الإنسانية فهو صباحها الذي طال عليها انتظاره ، كى ترفع عنها أستار الظلام والضلال ، وحتى تتخلص مما كانت تغرق فيه من الشرك بالله وما يتبعه من الخطايا والموبقات ، وقد أخذت أشعته ، تهبط في آفاق مكة والحجاز ، وجيوش الظلام والكفر والشرك تولى مدبرة إلى غير مآب ، وتدفّق البشائر بأن الإنسانية ستنهض على أضواء الإسلام إلى ما ينبغي لها من هدى ورشاد .

( إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ ) :

الضمير في (إنه) يعود إلى القرآن وإن لم يسبق له ذكر لتعين العلم به على نحو ما عاد الضمير إلى النفس في آية الواقعة : ( فَلَوْلَا إِذَا بَلَغَتِ الْحُلُقُومَ ) لتعينها العلم بها . والآية جواب للأقسام قبلها . والرسول فيها هو جبريل . وقيل هو محمد صلى الله عليه وسلم ، وكان أصحاب هذا القول نظروا إلى آيات سورة الحاقة : ( إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَاعِرٍ قَلِيلًا مَا تُؤْمِنُونَ وَلَا بِقَوْلِ كَاهِنٍ قَلِيلًا مَا تَذَكَّرُونَ ) ، والآيات حقاً في الرسول عليه السلام وما كان يزعمه أعداؤه من أنه شاعر أو كاهن ، فالله يرد عليهم بأن قوله ليس قول كاهن ولا شاعر وإنما قول رسول كريم على ربه لا ينطق عن الهوى . أما هذه الآية التي نحن بصددنا فقد تلتها صفات نُعِتَ بها جبريل في سورة النجم وغيرها على نحو ما سيتضح عما قليل . والرسول هو الذى يؤدّي كلام من أرسله ، فجبريل يؤدى كلام ربه إلى

النبي ، والنبي بدوره يؤديه إلى الناس ، فهو ليس كلام أحدهما إنما هو كلام الله ورسالة منه إلى البشر أنزلها من ملكوته الأعلى هداية لهم ، وكان أول إنزالها في شهر رمضان كما جاء في سورة البقرة : (شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِي أُنزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ هُدًى لِّلنَّاسِ وَبَيِّنَاتٍ مِّنَ الْهُدَىٰ وَالْفُرْقَانِ) أُنزِلَ فِي لَيْلَةِ مَبَارَكَةٍ مِّن لَّيَالِيهِ كَمَا قَالَ جَلَّ ثَنَاوَهُ : (إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ وَمَا أَدْرَاكَ مَا لَيْلَةُ الْقَدْرِ لَيْلَةُ الْقَدْرِ خَيْرٌ مِّنْ أَلْفِ شَهْرٍ تَنزَلُ الْمَلَائِكَةُ وَالرُّوحُ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِمْ مِنْ كُلِّ أَمْرٍ سَلَامٌ هِيَ حَتَّىٰ مَطْلَعِ الْفَجْرِ) ، وقد أضاف الله إنزاله إليه دون رسولٍ أو دون جبريل تعظيماً له ، وكأنه يقول إنما قَدَرْنَا إنزاله في تلك الليلة العظيمة . ومعروف أن القرآن أُنزِلَ منجماً أو مقسّطاً في ثلاث وعشرين سنة ، وكان يُكْتَبُ وَيُحْفَظُ عند نزوله . وإليه قال : (إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ) كأنه أنزله جملة واحدة ليدل على أنه كان مدوناً في علما منذ الأزل . وقد أنزله تدريجاً لتسهيل حفظه على الرسول وتشبيت فؤاده كما قال جَلَّ شأنه في سورة الفرقان : (وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ الْقُرْآنُ جُمْلَةً وَاحِدَةً كَذَلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِ فُؤَادَكَ) . والروح المذكورة مع تنزلا الملائكة في ليلة القدر هي جبريل . وغلط ما ذكره بعض المفسرين من أن مَلَكَ لو التقم السموات والأرضين كانت له لُقْمَةٌ واحدة ، أو هو ملك رأس تحت العرش ورجلاه في تخوم الأرض السابعة وله ألف رأس كل رأس أعظ من الدنيا ، وفي كل رأس ألف وجه وفي كل وجه ألف فم وفي كل فم ألف لسان ، يسبِّح الله بكل لسان ألف نوعٍ من التسبيح والتحميد والتمجيد وهو مما دخل على التفسير من الإسرائيليات المضللة . وقد ذُكِرَ جبريل في القرآن باسمه وأنه رسول ربه إلى نبيه بآياته ينفتح بها في قلبه أو روعه كما

جاء في آية سورة البقرة : ( قُلْ مَنْ كَانَ عَدُوًّا لِجِبْرِيلَ فَإِنَّهُ نَزَّلَهُ عَلَى قَلْبِكَ بِإِذْنِ اللَّهِ ) وَنُوعَتْ بِأَنَّهُ الرُّوحُ الْأَمِينُ فِي آيَاتِ سُورَةِ الشُّعَرَاءِ : ( وَإِنَّهُ لَتَنْزِيلُ رَبِّ الْعَالَمِينَ نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ عَلَى قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنذِرِينَ بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُبِينٍ ) ، فالله قد أنزله على رسوله بلسانه العربي ليبين لقومه رسالة ربه بياناً عربياً ، بل ليلبغها إلى الناس كافة حتى تكفل لهم السعادة في الدنيا والآخرة ، متخذاً رسوله إلى نبيه جبريلَ الروح الأمين ، يحمل إليه كلامه وتعاليمه . وينبغي أن نعرف أن كلام الله الذي نزل به جبريل على نبيه قسمان : القرآن والحديث القدسي ، وهو ما تشير إليه آية سورة الشورى : ( وَمَا كَانَ لِيُبَشِّرَ أَنْ يُكَلِّمَهُ اللَّهُ إِلَّا وَحْيًا أَوْ مِنْ وَرَاءِ حِجَابٍ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولًا فَيُوحِيَ بَأِذْنِهِ مَا يَشَاءُ إِنَّهُ عَلَى حَكِيمٍ ) . والوحي في الآية يُراد به نفثُ جبريل في قلب الرسول بما يكون إلهاماً في اليقظة أو في الحلم والمنام من مثل قوله صلى الله عليه وسلم : إن جبريل أو روح القدس نفث في روعي ( قلبي ) : « إن نفساً لن تموت حتى تستكمل رزقها وأجلها فاتقوا الله وأجملوا في الطلب ، خذوا ما حلَّ ودعوا ما حرم » . أما كلام الله ( من وراء حجاب ) فالمراد به كلام الله لموسى عليه السلام وكان قد سأل ربه الرؤية بعد تكليمه فحُجِبَتْ عنه . أما الوسيلة الثالثة لكلام الله فهي أن يرسل لنبى رسولاً من عنده يبلغه بإذنه كلامه على نحو إرساله جبريل بكلامه وقرآنه لنبينا عليه السلام ، فكان يسمعه منه نطقاً ويراه عياناً . وعن ابن عباس أنه لم يره من الأنبياء سوى موسى وزكريا وعيسى ومحمد ، أما بقية الأنبياء فكان ينث في روعهم وحيّاً وإلهاماً في اليقظة أو في المنام . ومعنى ذلك أن جبريل كان ينزل على الرسول صلى الله عليه وسلم عياناً بالقرآن ونفثاً وإلهاماً ببعض

السنة أو ببعض الحديث ، وهو ما يسمى بالحديث القدسي ، ومن أجل ذلك جازت رواية الأحاديث القدسية بالمعنى ، ولم تجز رواية القرآن به لأن الرسول أداه بلفظه كما أنزل عليه ، فأصبح هذا اللفظ مقدساً يتعبد به كما أصبح مناط إعجازه البلاغى الذى تنقطع دونه الرقاب ، والذى يخلب العقول والألباب .

( ذِي قُوَّةٍ عِنْدَ ذِي الْعَرْشِ مَكِينٍ \* مُطَاعٍ ثَمَّ أَمِينٍ ) :

وُصف جبريل فى الآية السالفة بأنه كريم على ربه عزيز عليه تشریفاً له وتكريماً ، ووُصف فى هاتين الآيتين بأربع صفات أخرى ، والصفة الأولى صفة القوة ، وقد جاءت فى وصف الله له بسورة النجم إذ قال عن تبليغه رسالته إلى نبيه : ( عَلَّمَهُ شَدِيدُ الْقُوَى ذُو مِرَّةٍ ) والمرّة شدة القوة وحصافة العقل ، وهما صفتان من شأنهما أن يتيحاً للرسول تأدية رسالته . وصور بعض الإخباريين قوة جبريل عن طريق الإسرائيليات الباطلة ، فقالوا : بلغ من قوته أنه اقتلع مدائن قوم لوط من الأرض وحملها على جناحه حتى رفعها إلى السماء وسمع أهلها نباح كلابهم وصياح ديكيتهم ثم قلبها جاعلاً عاليها سافلها ، وقالوا إنه صاح صيحة بشمود فى عددهم وكثرتهم فأصبحوا جاثمين خامدين ، وإنه رأى شيطاناً يكلم عيسى عليه السلام فى عقبه من عقاب الأراضى المقدسة فنفحه نفحة بجناحه فالتى به فى أقصى الهند . و (عِنْدَ ذِي الْعَرْشِ مَكِينٍ) هى الصفة الثانية من الصفات الأربع فهو وجيه عند ربه مقرب إليه له منزلة عظيمة . وذو العرش وصاحبه الله جلّ جلاله ، وقد كُنّي بالعرش فى القرآن عن سلطانه وملكه وعظمهما ، وينبغى أن نعتقد به

غير أننا لا نعلم حقيقته ، ومن الخطأ أن نفتح الباب في بيان كنهه للإسرائيليات حتى لنجد الزمخشري المعتزل الذي أول الكرسي في آية سورة البقرة : ( وَسِعَ كُرْسِيُّهُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ ) بأنه تصوير لعظمة الله وتخيل فقط. ولا كرسيّ ثمة ولا قعود ولا قاعد يشارك في إدخال طائفة منها في تفسيره لآية غافر : ( الَّذِينَ يَحْمِلُونَ الْعَرْشَ وَمَنْ حَوْلَهُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ ) والآية كناية عن تصريف الملائكة للملك الإلهي وقواه الكونية ، ونرى الزمخشري يقول : إن حملة العرش أرجلهم في الأرض السفلى ورؤوسهم قد خرقت العرش وهم خشوع لا يرفعون طرفهم وهم أشرف الملائكة وأفضلهم ، ويقول : حول العرش سبعون ألف صف من الملائكة يطوفون به مهلئين مكبرين ، ومن ورائهم سبعون ألف صف قيام قد وضعوا أيديهم على عواتقهم رافعين أصواتهم بالتلهيل والتكبير ، من ورائهم مائة ألف صف قد وضعوا الأيمان على الشمائل ما منهم أحد إلا وهو يسبح بما لا يسبح به الآخر . وقد ذكرنا ذلك عند الزمخشري لنذكر على مدى ما دخل التفسير من إسرائيليات لم يستطع أن يبرأ منها مثل الزمخشري مع احترازه . وما دخل في تصوير جبريل منها يفوق كل خيال ، من ذلك ما قيل من أنه يوجد عن يمين العرش نهر من نور مثل السموات السبع والأرضين السبع والبحار السبعة يدخل جبريل كل يوم فيه سحرًا ، فيغتسل فيزداد نورًا على نوره وجمالاً على جماله وعظماً على عظمه ، ثم ينتفض فيخلق الله من كل قطرة تقع من ريشه سبعين ألف ملك . وقيل إنه حين يقف بين يدي الله ترتعد فرائصه هيبة وخشية ، فيخلق الله من كل رعدة مائة ألف ملك ! وكأنهم يريدون بذلك أن يعبروا عن مكانته عند ربه ، ويكفي في تصويرها أن نعرف أن القرآن سورة الرحمن

ذكره مراراً والملائكة من حوله كما في آية سورة النبأ : (يَوْمَ يَقُومُ  
الرُّوحُ وَالْمَلَائِكَةُ صَفًّا) بل لقد ذكره الله معه ومن حولهما الملائكة وصالح  
المؤمنين في نصرة الرسول عليه السلام كما جاء في سورة التحريم : (فَإِنَّ  
اللَّهَ هُوَ مَوْلَاهُ وَجِبْرِيلُ وَصَالِحُ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمَلَائِكَةُ بَعْدَ ذَلِكَ ظَهِيرٌ) . وهو  
تصوير قوى لمكانة جبريل عند ربه . والصفة الثالثة لجبريل في الآيتين  
أنه (مُطَاعٌ ثَمَّ) أى هناك فى ملكه الأعلى يطيعه الملائكة ويصدرون عن أمره  
لعلمهم بمنزلته الشريفة عند ربه ، وكان طاعته فريضة على أهل السموات  
كما فرضت على أهل الأرض طاعة الرسول عليه السلام . والصفة الرابعة فى  
جبريل أنه (أمين) فهو أمين على وحى الله مؤتمن عنده على رسالاته إلى أنبيائه ،  
وقد سمأه فى سورة الشعراء كما مر بنا (الروح الأمين) وسماه مراراً : (روح  
القدس) كما فى آية سورة النحل : (قُلْ نَزَّلَهُ رُوحُ الْقُدُسِ مِنْ رَبِّكَ بِالْحَقِّ  
لِيُثَبِّتَ الَّذِينَ آمَنُوا وَهُدًى وَبُشْرَى لِلْمُسْلِمِينَ) . وقيل القدس الله وكأنه أضافه  
إليه تشريفاً . وقيل القدس الطهر ، فهو روح الطهارة ، وقيل : بل التقديس  
فهو روح مقدس عظيم .

(وَمَا صَاحِبُكُمْ بِمَجْنُونٍ • وَلَقَدْ رَآهُ بِالْأَفْقِ الْمُبِينِ) :

كان من المشركين فى مكة مثل عقبة بن أبى معيط . من يكثرون من قولهم  
إن محمداً عليه السلام مجنون ، فردّ الله عليهم افتراءهم مراراً بمثل قوله فى  
سورة الصافات : ( وَيَقُولُونَ أَيُّنَا لَتَارِكُوا آلِهَتِنَا لِشَاعِرٍ مَجْنُونٍ بَلْ جَاءَ  
بِالْحَقِّ وَصَدَقَ الْمُرْسَلِينَ ) . وقد ذكره هنا بصفة الصحبة لهم والرفقة  
تعريضاً بأنهم يعرفونه أدق المعرفة ، يعرفون حصافته ونزاهته وأمانته ، وقد

بلغ من إعجابهم به شاباً أن لقبوه الصادق الأمين . وفي ذلك رد بليغ عن طريق التعريض والتلويح على ما يلوكه أعداء الدين الحنيف في حقه من أمثال ابن أبي مُعَيْط وما يقولونه كذباً وبهتاناً عليه من أنه مجنون ، وهم الذين مسهم الجنون حين ركبوا رهوسهم ومضوا في غيهم يحادونه ويحادون الله منكرين أن يكون قد نزل عليه وحى من السماء وأن يكون الله قد خصه برسالته الكبرى . وفي الصحيحين : صحيح البخارى وصحيح مسلم عن السيدة عائشة رضى الله عنها أن أول ما بُدئ به رسول الله صلى الله عليه وسلم من الوحي الرؤيا الصادقة ثم حُبب إليه الخلاء فكان يأتي حِرَاءَ فَيَتَحَنَّثُ (يتعبد) فيه الليالي ذوات العدد ، ويتزود لذلك . ثم يرجع إلى خديجة فتزوده لمثلها، حتى فجأه الحق وهو في غار حِرَاءَ (بجبل النور) فجاء الملك ، فقال : اقرأ ، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : فقلت ما أنا بقارئ ، فأخذني فغطني (عصرني) حتى بلغ مني الجهد ثم أرسلني ، فقال : اقرأ . فقلت : ما أنا بقارئ ، فأخذني فغطني الثانية ، حتى بلغ مني الجهد ، ثم أرسلني ، فقال : اقرأ ، فقلت : ما أنا بقارئ ، فأخذني ، فغطني الثالثة حتى بلغ مني الجهد ، ثم أرسلني ، فقال : (اقرأ باسم ربك الذي خلق) حتى بلغ (علم الإنسان ما لم يعلم) فرجع بها يرجف فؤاده حتى دخل على خديجة ، فقال : زمّلوني (غطوني) فزمّلوه حتى ذهب عنه الروع . وظل جبريل ثلاثة وعشرين عاماً ينزل بالقرآن على قلبه الشريف بلسان عربي مبين ، وفي الحديث الصحيح أنه كان يأتيه في ثلاث صور : في مثل صَلْصَلَةِ الْجَرَسِ أَى في صوت ذى زنين ، وفي صورة هادئة يكلمه فيها دون صوت قوى مستطيل ، وفي صورة مشتدة على نحو ما جاءه في أول الوحي . وكان جبينه يتفصد في اليوم البارد عرقاً . وكأنه كان مزوداً لتلقى هذا

الفيض الإلهي بقوى وحواس فوق قوانا وحواسنا العادية . وتلقاه أولاً في غار حراء ، ثم كان يتلقاه وهو جالس مع أصحابه أو في بيته مع بعض زوجاته . ويقول الله جلّ ثناؤه : ( وَلَقَدْ رَآهُ بِالْأَفْقِ الْمُبِينِ ) رؤية صادقة لا مرية فيها ، ويقول في سورة النجم مفصلاً رؤيته له بعض التفصيل : ( إِنَّهُ هُوَ الْوَحِيُّ الْوَحَىٰ عَلَّمَهُ شَدِيدُ الْقُوَىٰ ذُو مِرَّةٍ فَاسْتَوَىٰ وَهُوَ بِالْأَفْقِ الْأَعْلَىٰ ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّىٰ فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَىٰ فَأَوْحَىٰ إِلَىٰ عَبْدِهِ مَا أَوْحَىٰ مَا كَذَبَ الْفُؤَادُ مَا رَأَىٰ أَفَتُمَارُونَهُ عَلَىٰ مَا يَرَىٰ وَلَقَدْ رَآهُ نَزْلَةً أُخْرَىٰ عِنْدَ سِدْرَةِ الْمُنْتَهَىٰ ) ، واستوى تراءى له في صورته ، والأفق ناحية السماء ، وتدلى قرب من النبي عليه السلام حتى كان بينهما قدر قوسين أو دونها فأبلغه وحى ربه ، وإنها لرؤية بالعين المبصرة فكيف تجحدونه ؟ ويقول جلّ شأنه إنه رآه مرة أخرى عند شجرة المنتهى ، ويقول المفسرون إن هذه الرؤية الثانية كانت في أثناء معراجه إلى السماء ، فقد أسرى به ليلاً إلى المسجد الأقصى ثم صعد منه إلى السموات . والقائلون بهذا القول يجعلون معراجه مثل إسرائه في اليقظة لا في المنام . ونصّ الذكر الحكيم على هاتين الرؤيتين لجبريل مع أن الرسول رآه مراراً وتكراراً جعل جمهور المفسرين يقولون إنه رآه فيهما على صورته الملائكية الحقيقية ، وكان يأتيه في صورة بشرية . وليس في الآية التي نحن بصددنا ولا في آيات النجم ما يدل على أنه رآه في تلك الصورة الخاصة ، إنما كل ما هناك أن الله ينص على رؤيته لجبريل رؤية حقيقية محسوسة بعينه وأن كل ما يقوله عن رؤيته له حق وصدق في العين والفؤاد والبصر والاعتقاد ، فهو يقين لا يبلغه يقين . وكأنما كان الحديث عن هذه الرؤية لصورة جبريل الملائكية فرصة لكي يدخل

طوفان من الإسرائيليات ، من ذلك ما قيل من أن رؤية الرسول عليه السلام جبريل لأول مرة كانت في غار حراء أى في مطالع الوحى ، وأنه رآه قد أقبل ببخششة وصلصلة من جبال عرفات حتى ملأ الآفاق بصدده ، رجلاه في الأرض ورأسه في السماء وجناح له بالشرق وجناح له بالمغرب وله ستمائة جناح من الزبرجد الأخضر ، فغشى على الرسول صلى الله عليه وسلم ، فتحول جبريل في صورة الآدميين ، ونزل إليه فقال : يا محمد إنما نشرت جناحين من أجنحتي الستمائة وإن كل جناح منها ليسع ما بين المشرق والمغرب ، ولقد خلق الله إسرافيل ورأسه من تحت العرش ورجلاه في تخوم الأرض السابعة وله ستمائة جناح مثلى غير أن كل جناح منها قدر جميع أجنحتي وإنه ليتضاءل أحياناً من مخافة الله حتى يكون بقدر العصفور الصغير . ومن الغريب أن يؤمن بعض الأسلاف بمثل هذا الخبر الزائف ويفتحوا باباً طويلاً للحوار في قدرة جبريل على التشكل في غير صورته الحقيقية ، وتساءلوا هل التشكل في جسده فقط . أو هو في جسده وروحه وهل يكون ذلك بقدرته أو قدرة ربه ؟ وتدخل في ذلك ترهات تغرق في الخيال إغراقاً بعيداً ، إذ يزعم بعضهم أن الله يمنح الملاك قوة التصرف في جسده على نحو ما منح ذلك للأولياء ، إذ يقولون إن منهم من يقيمون في أمكنتهم وترحل أشباحهم إلى أمكنة أخرى يراهم فيها الناس رؤية حقيقية ، وقد تورط في مثل هذا البهتان بعض الأسلاف حتى قالوا إن من كرامات الأولياء أن تكون لهم أجساد متعددة . وكان نفر منهم يسمى هذا التحول باسم عالم المثال ، وهو عالم متوسط . بين عالمي الأجساد والأرواح ، أطف من العالم الأول وأكشف من العالم الثاني ، فالأرواح تتجسد وتظهر في صور مختلفة من عالم المثال . وعلى

ضوء من هذه الفكرة الضالة زعم بعض غلاة الشيعة الإسماعيلية أن أئمتهم يتحولون إلى عالم المثال تحولا يصبحون فيه عقولا فعالة ونفوسا كلية بحيث تُسبغ عليهم صفات الله وألقابه وأسمائه وأفعاله . وإنما استطرنا إلى بيان ذلك لندل على خطورة الأخذ بالأخبار غير الوثيقة وأن سيولا كثيرة من الإسرائيليات دخلت في التفسير وتناثرت في صحفه ومصنفاته دون أن يتنبه إليها المفسرون ، ولو تنبهوا لكانوا أول من نفوها عن التفسير وساحاته . وحقيقة جبريل الملائكية وحقيقة غيره من الملائكة ينبغي أن لا نتعدى في تصورهما ما جاء به القرآن والحديث الصحيح ، وقد جاء في سورة فاطر : ( الْحَمْدُ لِلَّهِ فَاطِرِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ جَاعِلِ الْمَلَائِكَةِ رُسُلًا أُولِي أَجْنِحَةٍ مَثْنَى وَثُلَاثَ وَرُبَاعَ يَزِيدُ فِي الْخَلْقِ مَا يَشَاءُ إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ) . والله جل ثناؤه يشير برسل الملائكة إلى مثل جبريل في رسالته عنه إلى المصطفى صلى الله عليه وسلم ، وقد قال إن للملائكة بل للرسل منهم أجنحة ، وكأنه كان لجبريل فعلا أجنحة وليس من الضروري أن تكون هذه الأجنحة من الريش كأجنحة الطير ، لأنها من عالم الغيب وكل ما فيه نجهله . وقد قال السهيلي شارح السيرة النبوية إن الأجنحة في حق الملائكة صفة ملائكية وقوة روحانية وليست كأجنحة الطير . وكأنما اتخذها القرآن تعبيراً عن قوة جبريل ونظرائه من رسل الملائكة وبياناً عن قدرتهم على الصعود إلى الملا الأعلى والهبوط إلى الدنيا تقريباً وتيسيراً في الفهم ، وإذن فهي في سورة فاطر تقابل تصوير جبريل في هذه السورة بقول الله تعالى : ( ذِي قُوَّةٍ ) وفي سورة النجم بقوله إنه : ( شَلِيدٌ الْقُوَى ذُو مِرَّةٍ ) فهو قوى قوة عظيمة على الهبوط والصعود في السموات والأرضين ، وهو قوى في تبليغ الرسالة إلى النبي صلى الله عليه وسلم لا يعجزه

شئ ، وكان ذلك كله إعراب عن كمال قوته ، التي جعلته يُجرى القرآن على لسان الرسول عليه السلام فيتلوه عنه بعد أن يسمعه بوضوح منه ، وبعد أن يفقهه عنه وتم له معرفته به : المعرفة اللسانية والقلبية .

( وَمَا هُوَ عَلَى الْغَيْبِ بِضَنِينٍ \* وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَيْطَانٍ رَجِيمٍ \*  
فَإَيْنَ تَذْهَبُونَ ) :

(وما هو) أى الرسول صلى الله عليه وسلم . والغيبُ القرآنُ والوحي . ومعنى ضنين بخيل . فهو لا يبخل بالقرآن النفيس على غيره ، بل هو يذيعه في الناس ولا يكتم منه شيئاً ، يستأثر به لنفسه . وقيل الضن والبخل هنا ليس بالقرآن نفسه وإنما بتعليمه ، فهو لا يَضمُّ بتبيينه للناس وتبيين أحكامه وتعاليمه ومواعظه . وقرئت (بضنين) بالطاء أى (بظنين) والظنين المتهم من الظنَّة وهي التهمة ، والمعنى أنه فوق أن يُتهم على تبليغ القرآن ، وكل ما اتهموه به باطل ، فإنه أمين على ما يسمع ، لا يتقول ولا يقول كذباً وإنه لصاحبكم قد عرفتموه بطول صحبتكم له وعرفتم أمانته وصدقه وطالما جربتموه واختبرتموه وعرفتم ظاهره وباطنه وأنه لا يُرتاب في صدقه ولا في صحة ما يورده على أسماعكم . وكانوا يقولون إن ما جاء به ليس رسالة سماوية ، وإنما هو كهانة ووسوسة نفس الشياطين التي كانوا يؤمنون أنها توسوس إلى كهنتهم بالغيب . وكانوا منتشرين في الجزيرة العربية ، وكانوا يزعمون أنهم يعلمون الغيب وأنه سُخر لهم شياطين من الجن تسترق لهم السمع وتأتيهم بما كُتب على الناس في ألواح الغد ، وكان لكل كاهن شيطانه ويسمى ربيياً . واستقر ذلك في نفوس العرب في الجاهلية وأصبح عقيدة ثابتة لهم ،

وكانوا يلجئون إليهم لاستشارتهم في الأمور الخطيرة كإعلان حرب أو كشف قتل أو معرفة سرقة أو قعود عن نصره أحلاف ، فكانوا يوردون عليهم في هذه الشؤون وأمثالها كلاماً مسجوعاً مبهماً يمتلئ بالإيهام ملقنين في روعهم أن الشياطين تنفثه على ألسنتهم . وقد حمل عليهم الدين الحنيف حملة شعواء ونهى عن تصديقهم ، ومع ذلك مضى بعض أعداء الرسول من قريش يقولون عنه إنه كاهن وساحر ويصدر عن بعض الشياطين على نحو ما كان يغيروهم كهنتهم ويحملونهم على الاعتقاد في توابع لهم من الجن ، ورد القرآن عليهم هذا الافتراء الكاذب مراراً ، تارة ينفي عن الرسول الكهانة كما في آية سورة الطور : (فَمَا أَنْتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِكَاهِنٍ) وتارة ينفي أن يكون القرآن تعليم شيطان أو رثي من الجن ، فإن شيطاناً لا يستطيع أن يصل إلى الملا الأعلى كما جاء في سورة الشعراء : (وَمَا تَنْزَلَتْ بِهِ الشَّيَاطِينُ وَمَا يَنْبَغِي لَهُمْ وَمَا يَسْتَظِيلُونَ إِنْهُمْ عَنِ السَّمْعِ لَمْعَزُولُونَ) ، فهم محجوبون عن سمع الملا الأعلى ولا يمكن أن يصلوا إليه ولا أن يطلعوا على ما فيه من القرآن أو من الغيب الذي تزعم كهنتهم أنهم يكشفونه لهم . وترد الآية على الكفار دعواهم في إنكار شديد ، إذ تصف الشيطان بأنه (رَجِيمٌ) أو بعبارة أخرى ملعون لعنة أبدية محروم من رضا ربه فكيف يحمل هداية وقرآنه ؟ إنما يحمل هذا القرآن والهدى والنور ملائكة كريم على الله قوى عند ربه مكين مطاع في العالم الأعلى عالم النور والجلال أمين على حمل رسالة ربه وتبليغها إلى رسوله بتأييد من الله العلي العظيم . ويوبخ الله المشركين على تماديهم في الغي والضلال بعدما أبصروا الهدى والرشاد ، فيقول لهم : (فَأَيْنَ تَذْهَبُونَ) وأي طريق تختارون ، لقد عرفتم معرفة يقينية أن محمداً ليس مجنوناً وليس كاهناً

يزعم أنه يحكى عن شياطين ، إنما هو نبي صادق يحكى عن وحى مبين .  
 وكان الله يريد أن يسجل عليهم ضلالهم فقد بان الهدى أمامهم ، وهم  
 لا يتابعون نوره ، وكان على عيونهم غشاوة وفي آذانهم وقراً ، فهم لا  
 يستجيبون إليه ، ويقول لهم الله : ( فَأَيْنَ تَذْهَبُونَ ) استنكاراً لموقفهم وبياناً  
 لضلالهم ، وقد أوضح هذا المعنى في آية سورة يونس إذ يقول : ( فَذَلِكُمُ اللَّهُ  
 رَبُّكُمُ الْحَقُّ فَمَاذَا بَعُدَ الْحَقُّ إِلَّا الضَّلَالُ فَأَنَّى تُصْرَفُونَ ) أى فكيف تتحولون  
 من الحق إلى الباطل ومن التوحيد إلى الشرك ومن الهدى إلى الضلال ؟ إنه  
 ليس أمامكم إلا طريق واحد ، طريق الهدى والتوحيد والحق والإيمان بمحمد  
 ووحيه وقرآنه المبين .

( إِنَّهُ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِلْعَالَمِينَ \* لِمَنْ شَاءَ مِنْكُمْ أَنْ يَسْتَقِيمَ ) :

الذكر البيان ، ويشمل كل ما جاء به القرآن من هدى وموعظة وتعاليم  
 متصلة بالعقيدة والعبادة أو بالإيمان والعمل والخلق والسلوك وطرق الخير والشرف  
 والصالحات والموبقات . ويصور ذلك ابن قسيم الجوزية فيقول : « إن  
 القرآن يذكر العباد بمصالحهم في معاشهم ومآلاتهم ، ويذكرهم بالمبدأ والمبعث  
 ويذكرهم بالرب تعالى وأسمائه وصفاته وأفعاله وحقوقه على عباده ، ويذكرهم  
 بالخير ليقصدوه وبالشر ليجتنبوه ، ويذكرهم بنفوسهم وأحوالها وآفاتهما وما  
 تكمل به ، ويذكرهم بالشيطان عدوهم وما يريد منهم وبماذا يحترزون من  
 كيدته ومن أى الأبواب والطرق يأتى إليهم ، ويذكرهم بفاقتهم وحاجتهم  
 إليه وأنهم مضطرون إليه لا يستغنون عنه نفساً واحداً ، ويذكرهم بنعمه  
 عليهم ويدعوهم بها إلى نعم أخرى أكبر منها ، ويذكرهم بأسه وشدة بطشه

وانتقامه ممن عصى أمره وكذب رسله ، ويذكرهم بشوابه وعقابه . . ونستطيع أن نضيف إلى ذلك أنه يذكرهم عقابه لا يوم الحساب فحسب ، بل أيضاً عقاب الأمم الماضية وطغاتها وشعوبها الذين عصوا الله وحادوا رسله وأنبياءه وقاوموا نُذره فدمرهم تدميراً ، ويذكرهم دعوته الإصلاحية الاجتماعية الكبرى في سبيل إقامة أمة متآخية روحياً واقتصادياً ، أمة عالمية تضم البشر جميعاً وتمنحى فيها الحواجز الإقليمية والفوارق العنصرية كما قال تعالى في سورة الحجرات : ( يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ ) ويؤكد الرسول هذا المعنى في خطبة حجة الوداع إذ يقول : « لا فضل لعربي على أعجمي إلا بالتقوى » ، كما يؤكد في أحاديث كثيرة من مثل قوله : « إن الله لا ينظر إلى أحسابكم ولا إلى أنسابكم ولا إلى أجسامكم ولا إلى أموالكم ولكن ينظر إلى قلوبكم ، فمن كان له قلب صالح تحنن الله عليه ، وإنما أنتم بنو آدم وأحبكم إليه أتقاكم » . ومر بنا في سورة الرحمن ، وسنرى في سورة الماعون أن الله جعل الحَضَّ على طعام المسكين في مرتبة مساوية لتوحيده والإيمان به وقد جعل رَدَّ الموسر بعض ماله على الفقير وعلى المصلحة العامة للأمة والدولة فريضة دينية ، حتى يكون هناك تكافل قوى بين أفراد الأمة . وليس ذلك فقط. ما يذكر به القرآن فهو يذكر كما مر بنا في سورة الرحمن بدعوته القوية إلى العلم والتعلم واستغلال قوى الطبيعة وبذلك يجمع بين الروح والعقل جمعاً وثيقاً ، كما يذكر بقيمه الإنسانية الرائعة واعتداده بحرية الإنسان وكرامته وحقوقه في كل شيء حتى في الدين إذ وضع قانونه السَّمح العام : ( لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ ) فلا أحد يُكرهه على ترك دينه والدخول في الإسلام بل يُترك الناس أحراراً وما اختاروا

لأنفسهم من دين . وهو بذلك يضرب أروع مثل لأمة يتعايش فيها الناس من مختلف الأديان تعايشاً سلمياً تقوم على أساسه دولة إنسانية تضم بين جناحيها البَشَر من كل الأقاليم والعناصر والأجناس . وهذا المعنى نفسه أشار إليه القرآن مراراً كما جاء في هذه السورة إذ قال إنه ( ذِكْرٌ لِلْعَالَمِينَ ) أو بعبارة أخرى للثقلين من الإنس والجن ، فهو دين عالمي لكل مَنْ على الأرض . وقد تكررت هذه الصيغة في مواضع مختلفة من القرآن تكراراً يدل في وضوح على أن الله اختاره ليكون تنويجاً للشرائع السابقة وصوته القوى لهداية الناس ، بل إنه ليجعل له سلطاناً على تلك الشرائع إذ يقول في سورة المائدة : ( وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقاً لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الْكِتَابِ وَمُهَيْمِناً عَلَيْهِ ) فهو الشريعة الأخيرة الموجهة إلى الجنس البشري جميعه ، وفي ذلك يقول جلَّ شأنه في سورة مَبَأُ لَنبِيِّهِ : ( وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا كَافَّةً لِلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا ) ويقول الرسول صلى الله عليه وسلم : « بُعِثْتُ إِلَى الْأَحْمَرِ وَالْأَسْوَدِ » . ولذلك لا نعجب إذا رأينا الرسول عليه السلام في السنة التاسعة للهجرة بعد أن غمرت أشعة الإسلام الجزيرة العربية يقود بنفسه جيشاً إلى تبوك ، يريد أن يحارب الروم حتى يستأصل قوى الشر والفساد في تلك الدولة ويحلَّ مكانها قوى شريعته قوى الخير والرشاد . ويتوقى فينهض خليفته بما أراد لدينه عن هُدَى ربه من فتحه العالم ، وتُفْتَحُ مصر والشام وإيران . ويمضي النور في طرق ودروب إلى المحيطين الأطلسي والهادي ، ولا تزال إشعاعاته القوية فيها إلى اليوم . وكل ذلك إنما هو صدور عما كرره الله من عالمية الإسلام وأنه دين الجنس البشري عامة ، وقد بَيَّنَّ بياناً واضحاً كيف أنه يلائم البشر على اختلاف أجناسهم وألوانهم ، إذ قال في سورة الروم لرسوله : ( فَاقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ

حَنِيفاً فِطْرَةَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا) فهو دين الفطرة الإنسانية يشبع جميع نوازح الإنسان وحاجاته التي لا تتفاوت بتفاوت العصور والأقطار ، وهذا هو ما جعله يسود كل الديانات التي التقيها في محيطه كما جعل الأسم والأجناس المتباينة ترتضيه ديناً لها . ومن هنا كان يقال بحق إن الإسلام لم يفتح العالم القديم ودولتيه الكبيرتين : بيزنطة وإيران بالسيف وإنما فتحهما بتعاليمه ورسالته دون أن يفرضها على الناس ، فقد كانوا هم الذين يفرضونها على أنفسهم ، إذ وجدوا فيها ما يخاطب فِطْرَهُمْ وأعماق قلوبهم وضمايرهم وأفتدتهم دون أى إكراه أو أى محاولة للإكراه . والله نفسه جَلَّ ثناؤه بعد أن قرّر في هذه السورة أن القرآن ذكر أو دين للعالمين أو لكل من على الأرضين قال : ( لِمَنْ شَاءَ مِنْكُمْ أَنْ يَسْتَقِيمَ ) وكأنه يعود ليعطى كل إنسان حريته في اتباعه ، ويتلطف في بيان أنه الدين الهادى إلى الحق ، فيقول إنه دين أهل الاستقامة ، وكأنه يريد أن يحضّ على اتّباعه ولكن دون أى عسف أو قهر ، فلكل إنسان أن يختار لنفسه ، غير أن من واجبه أن يختار طريق الهدى والرشاد .

( وَمَا تَشَاءُونَ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ ) :

ظاهر هذه الآية أنها تقييد للآية التي سلفتها ، وكأن الإنسان لا يستطيع أن يشاء لنفسه الاستقامة إلا أن يشاءها الله له ، وهي قضية قديمة تجادلت فيها طوائف المتكلمين من جبرية ، وقدرية أو معتزلة ، وأشعرية ، أما الجبرية فذهبوا إلى أن الإنسان مسلوب الحرية والإرادة وأنه كريحشة في يد القدر يصرفها كيف يشاء ، وتمسكوا بمثل هذه الآية ومثل قوله تعالى في سورة

الإنسان : (إِنَّ هُدًى تَذَكُّرَةً فَمَنْ شَاءَ اتَّخَذَ إِلَىٰ رَبِّهِ سَبِيلًا وَمَا تَشَاءُونَ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا) ، ومثل قوله في سورة الجاثية : (أَفَرَأَيْتَ مَنْ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ وَأَضَلَّهُ اللَّهُ عَلَىٰ عِلْمٍ وَخَتَمَ عَلَىٰ سَمْعِهِ وَقَلْبِهِ وَجَعَلَ عَلَىٰ بَصَرِهِ غِشَاوَةً فَمَنْ يَهْدِيهِ مِنْ بَعْدِ اللَّهِ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ) ، وظاهر الآية الثانية أن الله أضلَّ هذا المشرك ومثله ، عالماً بأنه من أهل الضلال وأنه كتب عليه ذلك في سابق علمه ، وأنه طبع على سمعه حتى لا يسمع الوعظ. ، وعلى قلبه حتى لا يغطن إلى الهدى ، وجعل على بصره غطاء حتى لا يبصر الرشده . غير أن هاتين الآيتين وآية السورة تعارضها آيات أخرى مثل آية سورة الكهف : (وَقُلِ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكُمْ فَمَنْ شَاءَ فَلْيُؤْمِنْ وَمَنْ شَاءَ فَلْيُكْفُرْ) وآية سورة الإنسان : (إِنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا) وآية سورة الأنعام : (سَيَقُولُ الَّذِينَ أَشْرَكُوا لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَشْرَكْنَا وَلَا آبَاؤُنَا وَلَا حَرَمْنَا مِنْ شَيْءٍ كَذَلِكَ كَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ حَتَّىٰ ذَاقُوا بَأْسَنَا قُلْ هَلْ عِنْدَكُمْ مِنْ عِلْمٍ فَتُخْرِجُوهُ لَنَا إِنْ تَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنْ أَنْتُمْ إِلَّا تَخْرُصُونَ)؛ والآية الأخيرة واضحة في أن المشركين حاولوا أن ينسبوا إشراكهم وتحريمهم لما حرموه إلى مشيئة الله ، وكذلك صنع من قبلهم ، وسمى الله صنيعهم تكذيباً للرسول وأن من قبلهم قد عاقبهم الله عليه أشد العقاب . وبذلك نفي ادعاءهم وأنهم إنما يتبعون فيه ظناً آثماً واعتقاداً فاسداً . وتمسك المعتزلة والقدرية بمثل هذه الآية والآيتين قبلها وقالوا إن الإنسان حرٌّ تمام الحرية في إرادته وأفعاله وإلا لم يكن مسئولاً عن كفره وآثامه وموبقاته ، وأولوا ظاهر الآيات التي تمسك بها الجبرية ، فقالوا في مثل الآية التي نحن بصددنا (وَمَا تَشَاءُونَ) الاستقامة حين تشاءونها أو تختارونها إلا بتوفيق من

الله ولطفه . وتوسط. أيو الحسن الأشعري بين الرأيين المتعارضين فقال إن الإنسان حر في مشيئته ، غير أن مشيئته محدودة بمشيئة الله . ومعنى ذلك أن مشيئة الله مشيئة مطلقة ليس لها حدود ، أما مشيئة الإنسان فمشيئة محددة بالإرادة الإلهية وكأنها تقف عند حَدٍّ محدود ولا تتجاوزه وهو حد يجعلها من كسبه هي وما يتصل بها من الأفعال . وفي رأينا أنه حين يكون ظاهر كلام الله أن الإنسان حر في مشيئته وأفعاله إنما يصور واقعه وأنه كامل الحرية في اختيار الطريق الذي يسلكه في حياته إما طريق الهدى وإما طريق الضلال ، وحين يكون ظاهر كلامه أن مشيئة الإنسان معطلة إذ تسيطر عليه مشيئة الله ، فتهديه أو تضله إنما يصور المشيئة الكونية المضافة إليه وما بيّنه للإنسان عن طريق رسله وأنبيائه من الهدى والضلال ، أو بعبارة أخرى إن الله وضع في الوجود الأسباب التي تؤدي إلى الضلال والأخرى التي تؤدي إلى الهداية ، فمن اختار الهدى أو الضلال فكأنه اختاره بمشيئة الله دون أن يكون لهذه المشيئة جبر أو قسر ، إذ هي تضع الأسباب الكونية العامة ، والناس يشاءون ويختارون . وكان هناك مشيئتين : مشيئة صغرى للإنسان ومشيئة كبرى للذات العلية ولا تعارض بين المشيئتين .